

- رواية -

ترجمة : د . حسن البياتي

زبد الحديد



إيفان اوخانوف

زبـد الحديد

ترجمة

د . حسن البيـاني

دار المأمون للترجمة والنشر
بغداد - ١٩٨٩

OKANNHA

NABAH YXQHOB

زبد الحديد

ايڤان اوخانوڤ

دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
توجه المراسلات الى
دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد ـ الجمهورية العراقية
ص . ب ٨٠١٨
تلكس ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد

مقدمة المترجم

زَبَدُ الحديد ! وهل للحديد من زبد ؟ أجل ، انه ذلك الخَبَث الذي ينفيه كير الحداد ، تلك النفاية المتأكسدة التي سرعان ما تزيحها كفّ القين عن قطعة المعدن المتوهجة حتى درجة الحرارة البيضاء ، بعد أن تنزل عليه ضربات مطرقته القوية ، تزيح هذا الزبد فيذهب (كما في الآية القرآنية الكريمة / الرعد ١٧) جفاء ليمكث ، بعدئذ ، في الأرض ما ينفع الناس ويغنيهم

وهل الحديد ـ تبّاً لتجاره ! ـ سوى مصدر من مصادر ذلك النفع والعطاء ؟ !

وبطل روايتنا هذه ، المقاتل المدفعي أوستين ديدوشيف هو واحد من الرموز الفذة لهذا الحديد الحديد ، على الرغم مما شابه ـ بعض حين ـ من تلك النفايات «الزبدية» التي صارع وكابد كثيراً حتى أوشك ان يدفع حياته ثمناً ، في سبيل ازالتها عن كيانه ، لتذهب هباء جفاء ، وليمكث هو ، أوستين الحديد «عنصراً» نافعاً حتى بعد عودته من الجبهة مصاباً ، معاقاً ، فاقداً نعمة السمع والنطق اثر انفجار هائل لم يفقده الحيوية ولا الاحساس بغلبة الحياة الخيرة المجدية . ذلك لأنه انسان يؤمن بضرورة وشرعية العلاقة المحترمة الصحيحة تجاه نفسه وتجاه حبه الحياة

والاطفال والعمل والناس . ولأنه قوي لايهاب المستقبل ، تراه سرعان ما يغدو -رغم عوقه -شخصاً مهماً ، لا غنىً عنه في ورشة الحدادة ، وفي حياة قريته ومزرعتها التعاونية عامة ، فقد كان لها ولناسها الحداد والحصاد والبناء في آن معاً ، وحتى الغواص المنقذ حين تدعو الداعيات

تجري احداث الرواية في احدى القرى السوفيتية ، اثناء الحرب العالمية الثانية . وقد كتبت بعد مضي اربعين عاماً على انتهاء الحرب التي عاش كاتب الرواية سني حياته الخمس الاولى في اتونها المستعر

ابطال الرواية وشخوصها جميعاً هم ابناء القرية وسكانها - مَن بقي فيها ، او نزح اليها - من النساء والشيوخ والعجائز والصبيان والصبايا والاطفال ، ومَنْ عاد اليها من جبهات القتال جريحاً او معوقاً . كان الجميع يعملون - كلاً حسب طاقته - متكاتفين من اجل ان تجري الحياة في قريتهم الحبيبة التي هي فلذة من كبد وطنهم الكبير .

ويتميز في الرواية - فضلاً عن بطلها الرئيسي اوستين - شخوص وابطال اخرون ، من امثال الحداد العجوز پانكرات ، ذلك الشيخ المحنك الذي ينضح فطنة وحكمة ، والعامل المجد الدؤوب الذي تتمثل فيه طيبة الشعب وتضحيته

ومن الشخوص الحية الفعالة ايضاً مدير المزرعة التعاونية فاسينين ، الذي تميز بعقله المدبر وبقوة إرادته وبمساهمته في العمل مع الآخرين ، بغض النظر عن عوقه

وحتى بريديخين ، زير النساء والرجل المحظوظ في كل شيء ، ذلك المكار الذي يستدرجك ويتسلل الى نفسك «بلا صابون» ، حتى بريديخين الذي يبدو - أول وهلة - شخصية سلبية خاوية ، هو انسان نافع أيضاً ؛ يعمل ويطيع ، بل ويتقبل «بلا زعل» التأنيب والتقريع

اما العنصر النسائي في الرواية فأبرز ممثليه فروسيا ؛ الرمز الاسمى للزوجة الوفية والام الحنون والمرأة العاملة المجدة والانسانة الطيبة القلب المتعاطفة ، لامع ذوي زوجها والناس الاخرين فحسب ، بل ومع بقيراتها الحبيبات ايضاً

ومن الشخوص النسائية الطريفة الأرملة الشابة نيورا ، سائقة الجرارة ، تلك المرأة النشيطة التي حرمتها الحرب - مع من حرمت - وهي في عنفوان انوثتها ، من بعلها فبقيت هكذا بلا رجل يشاركها فراشها الناعم الوثير

واخرون واخريات لا اريد ان اكشفهم جميعاً قبل ان يدركهم القارىء ويعايشهم بنفسه

ينتمي هذا العمل الابداعي ذو المنحى الدرامي الى تيار في الاتجاه الواقعي يعتمد على معطيات التحليل النفسي ، ويتناول الانسان الحي الضمير الذي لا يستطيع العيش متوارياً خلف ستار من الكذب والبهتان والرياء

ومع ان الاثر الفني هذا يرجع في وقائعه الى سني الحرب العالمية الثانية ويتحدث عن مصير واحد من مقاتليها ، غير انه يدرج ايضاً - من حيث الجوهر - في سجل الاستكشافات الفنية الراهنة ،

بتناوله قوانين الضمير الصارمة ، سواء في زماننا هذا او في أي زمان اخر

ومؤلف هذا السفر الروائي إيفان أوخانوف هو واحد من كتاب القصة السوفيت الواقعيين المنتمين الى الجيل الاول لما بعد الحرب الذين يعتمدون التحليل النفسي في اعمالهم الروائية وينطلقون في كتاباتهم من فهم جديد للبطل، حيث ينظرون الى الاحداث من وجهة نظر القضايا الاخلاقية لوقتنا الراهن ويغوصون حتى الاغوار في تحليلهم الواقعي، وفي سعيهم نحو الكشف عن طبيعة الاشياء ونحو الادراك الفلسفي للواقع ، غير معنيين - إلا قليلاً - بالجانب العسكري المحض للاحداث

ولد إيفان أوخانوف سنة ١٩٤٠ في احدى قرى مقاطعة غوركي وانهى تحصيله الجامعي في كلية التربية بمدينة اورينبورغ . وقد أعلن الكاتب جديا عن نفسه في قصته الطويلة «لا تموتي ياأمي» ومن اثاره القصصية الطويلة التي اثارت الانتباه «عزفت جوقة الالات النحاسية» «نور الذاكرة» ، «زوبعة ثلجية في المدينة» وهو كاتب غزير الانتاج جيده صدرت له حتى عام ١٩٨٦ ، المجاميع القصصية والاعمال الروائية الآتية «سماء الطفولة» - ١٩٧١ ، «غداً سيكون كل شيء مغايراً» - ١٩٧٢ ، «في يوم خريفي مشرق» - ١٩٧٥ ، «نعيش مرة واحدة» - ١٩٧٨ ، «معاناة أم» - ١٩٨٣ ، «زبد الحديد» ١٩٨٥

وقد اعتمدت في ترجمتي «زبد الحديد» الى العربية ، على الأصل الروسي المنشور في «مجلة الرواية» السوفيتية (العدد ٢٣ سنة

١٩٨٦) ، تحت عنوان (OKALUHA = أوكالينا أي الزبد الرغوة ، خبث المعادن)

ولن اكـون مجانبـاً الحقيقة اذا مـا قلت ان رحلتي مع «زبـد الحديد» لم تكن نزهة ترفيهية سهلة ، بل كانت ـ في واقع الحال ـ مسيرة شاقة استدعت الصبر الطويل والنفس المديـد ، في بعض محطاتها ذات المطبات التي ترضّ وتكـدم فالحـوار في الروايـة مشحون ـ حدّ الإغراق ـ بالألفاظ والتعابـير الريفيـة الروسيـة المفرطة في عاميتها التي تغفو المعاجم والقواميس اللغوية سادرة دون توضيح دلالاتها وبالامثال والحكم والاقوال المأثورة التي تسيـل على ألسنـة العديـد من شخوصهـا اضافـة الى النكات والمداعبات المغلّفة المغلقة في مقاصدها احياناً .وحتى استرسالات المؤلف نفسه واستدراكـاته تنـدمج هي الاخـرى في كثير من حوانبها مع اللهجة القروية الدارجة التي هي لغة البسطاء من ناسها ، في حديثهم اليومي وفي تعاملهم مع الحياة وأحداثها

وكانت معالجتي اسلوب الحوار ـ بعد فكّ المعضلات طبعاً ـ بأن جعلته بلغة عربية سهلة بسيطة ، تسمو على اللهجة العامية بدنوها دنواً مؤكـداً من عربيتنـا الوسطى الفصيحـة وسيجد القـارىء في النص العربي بعض التعـابير المسجـوعة ، وحتى المنظومة ، التي جهدت في ان تكون قريبة من الاصل الروسي ، لكي احـافظ ـ ما امكن ـ عـلى أسلوب هـذا العمل الابـداعي وأطـره الأصيلة

ولقد نجح المؤلف حقاً في استخدام أدواته التعبيرية المنسقة

تنسيقاً موفقاً مع اجواء القريـة ومساحـاتها التي يتحـرك فوق أديمها ابطال روايته ، نجاحه في المشاركة الوجدانية ـ سلبـاً او ايجـاباً ـ بـين الاحداث الجـارية والظـروف العامـة والحالات النفسية للبطل والشخـوص الاخرى ، من جهـة ، وبين مظـاهر الطبيعة وظواهرها المختلفة من جهة أخرى . هذا اضافة الى تمكنه من اللجـوء ، عند الضرورات ، الى الاستطـراد والتداعي ورسم الصور الخلفية والمونولوج (المناجاة ، الحوار الداخلي) وكل ما يرتبطـمن قريب أو بعيد ـ بأسلـوب التحليل النفسي من سمـات وأدوات

«ان زبد الحديد» اثر ابداعي رائع ، يستهويك ويجعلك ترحل مع كاتبه حتى اخر المطاف الذي يتطور في ذروته الموضوع تطوراً عنيفاً ليكتمل ، فيما بعد ، ذلك الصراع الاخلاقي المحتدم في ذات البطل بين المروق وحضور الوجدان ، بين الحق الأبي في العيش وفقاً لإرادة الضمير والترجيح المزري لمعيشة بهيمية تخمد فيها همسات الضمير الحي وتخرق نواميسه

ولقد حسم هذا الصراع نهائياً لصالح الجانب الايجابي الخير في ذات البطل ، لصالح الحياة الحرة الكريمة نفسها

د . حسن البياتي
بغداد ١٩٨٨

■ ١ ■

في اوائل شهر اذار ، في يوم عاصف ، دافىء رطب من ايام عام ١٩٤٤ ، عاد من ساحة القتال أوستين ديروشيف . وصل من محطة القطار الى قريته الام كليوچوفكا على عربة نقل وقود عابرة يجرها فرسان نزل من العربة عند السياج الريفي ثم راح يخطو نحو بيوت القرية ، متعثرا فوق الطريق العزق الرخو ، بفعل ذوبان الثلوج وسيحانها

ومن بعيد لمحته ، بمعطفه العسكري ، نساء القرية وصبيانها فأخذ الجميع يتطلعون بوجل الى لقائه

سار أوستين في وسط الشارع بقامته المعتدلة المديدة ، مبتسماً للناس ابتسامات باهتة ، كما لو انه قد اقترف ذنبا ما . وسرعان ما تجمع قربه حشد من الناس غير كثيف . كانت النسوة يبتسمن ، يبكين ... ثم رحن يتسابقن ، وهن يتمخطن في مناديلهن ، الى استيضاحه عن ذويهن ... بعدئذ اندفعت نحوه من جانب وتعلقت بكتفيه ، في حال من الغشيان ، امرأة حاسرة الرأس هي زوجته فروسيا ، فأخذ أوستين يربت ، مواسيا ، على مؤخرة كتفيها الواسعتين الهزيلتين . وراحت فروسيا تنشج من فرح وهي تحك ، بمعاناة ، خدها الناعم بذقن زوجها

ذي الشعر الخشن القصير ، الذي يشبه الصَّنْفرة[1]

على مهلكن أيتها العقائق اتركن الرجل يستعيد أنفاسه افسحن له المجال لينطق كلمة ! ـ دنا من اوستين رجل في مقتبل العمر واسع عظمي الوجنتين ، ذو نظرة صارمة كان هذا ستيپان ڤاسينين «في الصيف الذي سبق الصيف الماضي حملونا معاً ، على عربة نقل واحدة الى مقر لجنة المنطقة العسكرية لقد تخرجنا في مدرسة المدفعية معاً ... لكن يبدو أن ستيپان قد سرّح ، لسبب ما ، من الخدمة العسكرية قبلي ها انه قد فقد يده اليسرى» ، ـ فكر اوستين بحزن عندما رأى كمّ السترة الاجوف المحشور تحت النطاق

ضغط ڤاسينين بشدة أصابع اوستين وحيّاه ، قائلاً بصوت خافت مرخم دافئ

مرحبا ، اوستين انك تبدو على ما يرام ، سليما معافى ، سوى ان انفك قد رُقّع ترقيعا غير جميل لكن لابأس ، هذه امور تافهة ، المهم هو انك حي ترزق

أوستينوشكا وزوجي پاڤل ، ألم تصادفه في مكان ما ـ جرته من كم معطفه امرأة تحمل على كاهلها طفلاً

آه ، ما أعظم سعادتك يافروسينكا ـ بين البكاء والضحك حتى الدموع ، تكلمت امرأة اخرى ، حاشرة نفسها ما بين اوستين وفروسيا

ـ هسّ ، اهدأن ، كفاكن ضجيجا ـ لوّح ڤاسينين بيده أمرا

---

١ ـ الصنفرة السنباذج (السنبادة) نقول (ورق السنبادة) ـ المترجم ـ

فتنحى الحشد مفسحا امام اوستين وحوله ، كأنه يهيىء حلقة أوسع لأجل الرقص . ـ لا يتركن مجالاً لقول كلمة ما ... وكيف بعد ياأوستين ، هل جئت في اجازة أم بالمرة ؟

نظر أوستين بارتباك الى الجميع ووقف صامتاً كالحجر . هكذا اذن حتى النطق ضيعه من شدة الفرح ، ـ ربت ڤاسينين ، مع عتاب رقيق ، على كتف اوستين . ـ ولكن لا بأس ... سنلتقي مساء ، ان لم تكن متعباً ... سنجلس نثرثر بعض الوقت

ـ نعم ، نعم . حقا ، ايتها النساء ، تعالن الينا في المساء . وانت ايضا ، ياستيپان يغوريتش . سوف نتناول العشاء معا . ما أعظمها من فرحة ، ياإلهي ! ـ ومن جديد التصقت فروسيا بزوجها وهزته من منكبيه ـ هيا تكلم ، حدّث الناس ياأوستينوشكا

حدّق اوستين في عيني زوجته بثقة يشوبها الحزن ، مجهداً نفسه في صمت

فجأة انفرج فمه قليلاً ، متعوجاً ، متألماً وانزلقت منه اصوات مبهمة يضاغط بعضها بعضا ، كما يحدث عند القيء

ـ غي .. إيغي .. أوئي

سكت النـاس جميعهم دفعة واحـدة وراحوا يتفرسون في وجه أوستين ، ذاهلين مرتبكين

ـ إيئي .. غوئي .. أوئي ـ أخذ أوستين يعتصر من حنجرته حروفاً قاسية وحشية ثم بدأ يحرك يديه بحدة ، كأنه يسعى جاهداً الى ان يشرح لهم مقصده ، راسماً بأنامله في الهواء مختلف الصور والاشكال

يا إلهي ، انه مصاب بلوثة في عقله ! ـ صرخت مرعوبة واحدة من النسوة

لقد شوّهوا الرجل ، ويل لهم من سفلة اوغاد

تبا لهؤلاء الفاشست المتوحشين ! .. ـ شرعت تولول ، بصوت خافت ، امرأة اخرى

جفلت فروسيا كما لو انها جلدت بسوط ونظرت الى الناس بوجه مستفسر مذعور ، غير مصدقة ما يقولون

كيف يكون هذا .. كفاكن ، ايتها النسوة ، لماذا تتفوهن بمثل هذا الكلام ؟ تبا لالسنتكن ! . اخذت تتكلم بارتباك وذهول . ثم راحتِ وقد لاح التأثر والقلق على وجهها الذي تضمر في لمح البصر ، راحت تستدير ببطء نحو زوجها وكأنها متهيبة وجلة . فمد اوستين يده نحو صدرها وشرع يزرر بلوزتها العتيقة التي انفرجت بفعل الرياح المشبعة بالرطوبة

ـ غي أوئي ، ـ بدأ يعتصر من جديد وقد نديت مقلتاه الغامقتان وتألق فيهما شيء ما

حسنا ، ولكن هيا ... قل لهم ، حدثهم استينوشكا ، أخذت فروسيا ، وهي تصد دموعها الطافرة من عينيها ، تناشده بصوت مرتعش غريب ، لا يمت اليها بصلة

ها هو يقول لك : لماذا عريت صدرك ؟ لقد فات اوان الصيف ، ـ صاحت امرأة تحمل على متنها طفلاً

انه يشفق عليك . فهيا شدي ازرار بلوزتك قبل ان تصابي بالزكام !

وليست به اية لوثة واضح من النظر : بعينيه ينطق . بعينيه يسمع
اي نعم . انـه يفهم كل شيء لكنه لا يستطيع أن يتكلم

اخذت النسوة ، متكاتفات متوددات ، يواسين فروسيا ويصبرنها
وقد حزر اوستين من تعابير وجوه الحاضرين انهم فهموا كل شيء ، وأنهم يأسفون على حاله
ـ وثاءة ؟... انت مصاب بوثاءة ، أليس كذلك ؟ ـ بدأ ڤاسينين يصرخ بصوت عال وهو منشدّ الى اذن اوستين

لم يرد عليه اوستين بأيما شكل ، بل جسّ الكمّ الخاوي من سترة ڤاسينين وأومأ برأسه ـ مستفهماً ـ نحو الغرب ، نحو تلك الجهة التي قدم منها قبل قليل الى القرية
أي نعم ، هناك . وأنا ايضاً مزقوني هناك ـ اجاب ڤاسينين بصوت كاب وايماءة رأس مكفهرة ، ثم اضاف قائلاً بخفة ومرح وهو يوجه حديثه الى اوستين والحاضرين جميعاً ـ لا بأس . ان الرأس واليدين والرجلين كلها في عهدتـك اما اللســان ، ولكن ما اللســان ؟ انك لن تستطيع أن تجدل به ولو خُفّاً !

هو كذلك ، اللسان ؟.. انه العدو الاول للانسان : كلما قل كلامك قلت اثامك
هكذا بالضبط . من فينا لم يوقعه لسانه في بلية ؟!
تطايرت مشاعر العطف والمواساة من كل جانب وصوب
هل تسمع ، يا اوستين ماذا يقول الناس ؟ أجل ، هكذا ، فلا تأسف على شيء . سوف نعيش ونعمل . ليس باللســان ، بل بـاليدين يعمـل

الانسان . ما أسهل الأقوال ، أما الافعال ؟!.. وأما يداك فنحن نعرفهما جيداً استرح بعض الوقت . وبعدما تتعافى تماماً تعال الى ادارة المزرعة التعاونية الاشتراكية . كان ڤاسينين يوجه كلامه الى فروسيا والحشد المتجمهر اكثر منه الى اوستين ، في حين راح يصوب نظرة تشجيعية الى عيني الجندي

غادر ڤاسينين المكان فوراً اما النسوة فقد واصلن الحديث شارحات لأوستين بأصابعهن أنَّ ستيپان ڤاسينين ، الذي كان فيما مضى رئيساً لفرقة العمال في المزرعة التعاونية الاشتراكية ، هو الآن يشغل منصب المدير فيها ... وقبل ان يتفرقن ، منصرفات الى بيوتهن ، راحت كل واحدة منهن تشجع بصوت عال فروسيا مرة اخرى ، منافساتٍ ومقاطعات بعضهن بعضاً ؛ منهن من فعلت ذلك بدافع الحنان والعطف الصادقين، ومنهن بقصد الوقوع ضمن المدعوات الى مائدة المساء اصغت فروسيا الى الجميع ، مسحت دموعها وهي تزداد ثقة بسعادتها الانثوية كزوجة وام . اجل ، لقد حالفها الحظ فعلاً ، ولا ينبغي لها الان أن تغتم ، بل عليها ان تشكر القدر فزوجها وان كان مكلوماً ، مصاباً بعاهة ، لكن الاصابة على درجة من البساطة هي اقرب الى السلامة ؛ اذ انها ـ كما يبدو ـ لم تلحق بصحته ضرراً جسيماً . ثم انها قد عزلته عن الحرب الى الابد .. قلن لها ، فسلمت راضية مرضية ، إن الحياة ستغدو لها سهلة مع زوج أصم أبكم إن الصم البكم لينو العريكة ، وديعون ، هادئون ، مطيعون ... لن يبلغ السمع منهم ابداً اي هراء أو سباب او كلام فاحش بذيء ... ثم نقلن اليها ، بلهجة ناصحة واعظة ، أن هناك ، في المزرعة التعاونية الثالثة جندياً عاد من

الجبهة الى زوجته وقد شوي داخل دبابته شيئاً فظيعاً عاد فاقداً ساقيه كلتيهما اما جوفه فسليم تماماً ، يجرع الڤودكا طوال النهار ، يبكي ، يتفوه بكلمات بذيئة ، يلعن الكون قاطبة ، يدب الى المشاجرة دبيبا ... اما هي ، زوجته المخلصة الحميمة ، فعليها ان تصبر وتصابر على معاشرته ، ان تتكيف معه ، تأسى له ، تشفق عليه ، هو الكسيح المقعد الى الابد . ياله من عقاب ، يالها من مصيبة أبدية فادحة ! ... اما اوستين ، فماذا به ؟ انه واقف على قدميه ، مالك كلتا يديه

مساءً ، في المنزل القروي الذي ازدحم بالضيوف ، في دار آل ديدوشيف ، راحت تصر لوحات الأرضية الخشبية ، ترتج الاواني فوق المائدة تنطلق اصوات النسوة بأهازيج الچاستوشكا الشعبية ، يطقطقن بأقدامهن منغمرات في رقصهن الشعبي وكأنهن في نوبة من نوبات الصرع احتسى اوستين قليلاً من الڤودكا ، بدأ يتشجع يحدث بيديه وشكر بمقلتيه جميع الذين فهموه كان ولداه الصغيران ڤاسيك وباڤليك يجلسان بقربه ، ينظران من حين لآخر الى والدهما بفضول مرح بهيج وبوجل ، دون ان يعرفا كيف يتفاهمان معه في الركن الامامي ، الى اليسار من اوستين ، جلس شيخ ضئيل الجسم ، لكنه صارم المظهر . كان يرتشف بجرعات صغيرة وفي معاناة ظاهرة ، كمن يتجرع دواء ، يرتشف الڤودكا من كأس صبت له مرة واحدة في بداية السهرة ، ويحك بتأمل حزين لحيته الخفيفة من حين لآخر . كان يتطلع متجهماً الى اوستين . وبرجاء من الضيوف ، رفع النخب مرتين محيياً ، لكنه لم يتمكن من ان يفوه بشيء ذي جدوى ، سوى انه راح يتشكى ويتظلم طويلاً

نحن ، آل ديدوشيف ، هذا هو ديدننا ، هذه هي حالنا منذ غابر الزمان . كل الحصى ينهال على رؤوسنا . هكذا هو نجمنا وطالعنا إليكم ، مثلاً ، ولدي هذا ... رحل سالما ، لكنه عاد بلا صوت . نجلس واياه متلاصقين جنبا الى جنب ، غير ان الحديث صامت بيننا . فالى اين المفر ؟ انها لمصيبة ... لكنها لا تجري في غابة ، بل تقع على الناس . هي ها هنا ، لدى كل واحد منا ، جاثمة على كاهله

اومأ اوستين الى والده ، وهو لا يسمع بالطبع كلامه الشجي الاسي ، اومأ اليه بابتسامة نشيطة ، كما لو انه كان يرد على حديثه مؤكداً ، في حين اكتأب العجوز من ذلك اشد الاكتئاب وتقوس ظهره اكثر من ذي قبل . نظر في كدر خافت من تحت حاجبيه المتهدلين الاشقرين الضاربين الى الحمرة ، نظر الى النسوة اللواتي ملأن المكان صخبا وضجيجا وكأنه يريد ان يقطع كلامهن ، ان يقنعهن بحججه اما النسوة فقد رحن يعللن الشيخ العجوز في مرح مدوٍ تتخلله الدموع ، وكأنهن كن يلمنه في سرهنّ

«لقد تكدرت من بطر يا دانيليتش . وهل لمثلك أن يحزن ؟! هاك انظر الى ولدك كيف عاد من الجبهة مورد الوجنتين .. واذا شئت فاذهب وطف على بيوت الاخرين : من ياترى حالفه الحظ هكذا ؟»

اقتربت من العجوز الارملة الشابة نيورا كوريوشينا ، جلست الى جواره ثم قالت له وهي تروح بمنديلها

ـ حسبك تلكؤاً يا دانيليتش ! هيا بنا نغني ، من اجلك ومن اجل اوستين آه ، كم كان يحب الغناء !

ـ لست راغباً في الغناء لأمرما ، يانيورا ، ولا في الشراب . ـ لوّح العجوز

بيده علامة الرفض

ـ وأنا ، لأجل اي شيء تراني أغني ، لأجل ان لا ابكي . وحين انتهي من الغناء ابدأ بعده بالعويل ! ـ هتفت نيورا في مرح مفاجيء ثم شرعت تدندن شيئاً ما بغير كلمات . وفي الحقيقة بدت وكأنها تولول

غنوا ، رقصوا ، بكوا ... ثم تفرقوا منصرفين بصمت وهدوء الى منازلهم

- ٢ -

في الصباح استيقظ اوستين من نومه حين كان المنزل خالياً من أيما انسان فروسيا توجهت ، مع انبلاج النور ، الى زريبة البقر ، الولدان ذهبا الى المدرسة ... طرح معطفه العسكري على كتفيه وخرج الى سقيفة الباب ، مضيقاً عينيه في مواجهة الشمس ثم راح ينظر عـلى مهل الى شارع القرية نظرة العارف المبتهج . بعيداً ، على مقربة من البئر ، كان ثمة حديث صاخب يدور - طبقا لحركات اليدين - بين امرأتين وثب ديك فوق سياج من اغصان مجدولة ، رف بجناحيه وبدأ يصيح لم يسمعه اوستين واستدار استدارة حادة مفاجئة لكي لا يرى الديك الذي كان يصدح بلا صوت خمدت الفرحة الهـادئة في صـدره استولى عليه الفزع فجأة قد يظهر الان من خلف ناصية الدرب رجل كريم ، يسأله - هو الفاقد النطق - عن أمر ما فيغدو امامه ، وهو يشرح له مجيباً على سؤاله ، يغدو في هيئته ضئيلاً ، مثيراً للضحك ، باعثاً على الاسى ... مثل هذا الديك تماما

سار أوستين مبتعـداً ببطء عن سقيفة البـاب ، خرج الى البـاحة الصغيرة المسيجة بأغصان مجدولة ، وبنظرة كئيبة متحرية راح يقيس الباحة في خطى متئدة غير مقصودة ثم أخذ ، وكأنه لا يثق بنفسه يتحسس بيديه ، متـأنياً متقصيـاً ، تارةً الجـرن المتداعي واخـرى

البرميل الخاوي وثالثة عدة النجارة القديمة وادوات البستنة التي كانت كلها معلقة على جدران مخزن الغلال

عرف جميع هذه الادوات واللوازم المنزلية التي كانت ، في غالبيتها من صنع يديه هو ، عرفها ، بيد انها بدت في الوقت نفسه وكأنها لم تعترف به : اذ لم تستجب للمساته بأيما صوت الملاقط والكسارات لم تبعث صليلها المألوف ، الأعنة ذات السيور الجلدية غير المدبوغة لم تبدأ صريرها في يديه التقط اوستين في ركن الباحة دلواً مبعجاً في حافته العليا ، تناول من فوق الرف مدقاً وشرع يقوّم على جِذل[2] شجرة اناء الصفيح اياه اخذ يطرق اول الأمر بدقة وسداد ثم اذا به يلوح فجأة بغضب وتهور ، يضرب على غير هدى وكأنه يرغب في ان ينتشل ، ان يخرج بالدق ، عنوة وعلى كل حال الصوت المطلوب من قطعة الحديد ... لكن لم يكن ثمة من صوت رمى اوستين ، وهو يتميز غيظاً ويلهث متنهداً ، كلاً من المطرقة والدلو الذي دمر كل التدمير ثم وقف وقد أسبل رأسه كالثور ، وقف طويلاً وسط الباحة متأملاً في ذهول بعدها خرج ثانية الى سقيفة المدخل وعاين الشارع كان الشارع اخرس صامتاً مثل بقية الاشياء الاخرى المحيطة به شعر أوستين برغبة في الذهاب الى الناس ، الى فروسيا ... هبط منحدراً درجات السلم وراح يضرب خطاه في الطريق فوق عمود الكهرباء المغروز مقابل مبنى ادارة المزرعة التعاونية سكتت واجمة فوهة مكبر الصوت السوداء وقد اكد صمتها ـ كما خمن اوستين ـ عصفور كان يحط فوقها غافياً خلي البال

---

٢ ـ الجذل اصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الفرع

ملحوظة. جميع الشروح والتعليقات الواردة في الحواشي هي للمترجم.

من عطفة زقاق مجاور ، خرجت مستديرة سيارة پيكاپ عتيقة واندفعت في الشارع ، ملاحقة الجندي وهي تزيق بجوفها المتصدع وقد داهمته تقريباً وهي ترسل دونما انقطاع اشاراتها الصوتية ، بل وكادت تلقي به ارضاً . ثم عرجت جانباً ، زاعقة بفراملها ، منزلقة الى داخل اخدود هناك . تنحى اوستين واندفع داغلاً متلكئاً نحو حافة الطريق . تعثر وهوى ساقطاً على الرصيف

أي ، انت ، مابك ؟ سكران ، ألا تسمع صوت الزمّور ؟! ـ شرع يصرخ ، غاضبا ، السائق الشاب المتين البنية ، الذي سرعان ما ميز فيه اوستين ابن قريته فيودور بريديخين

أصم ، هو اصم مصاب بعاهة ! ـ اخذت تصيح ، ملوحة بأيديها ، نساء كنّ واقفات عند البئر

وفي غضون ذلك نهض اوستين من على حافة الطريق واقترب نافضا قبعته وعلى وجهه سيماء من اقترف ذنباً ، اقترب من السائق الذي بدأت تتلألأ على وجهه بدلاً من سورة الغضب ، ابتسامة ذاهلة مرتبكة

أوستين ؟ ... مرحباً !ـ شد كل من الرجلين بقوة على يد الاخر ـ لم يقتلك الفاشست ، لكنني كدت ، بالمقابل ، ان ادهسك . تدبدب ضاربا الارض بقدميك كالاطرش !

سكت بريديخين وراح يلامس اوستين بنظرة ما ، اخرى جديدة ، خالية من البشاشة هذه المرة . ثم التفت بعد ذلك الى السيارة التي كانت تحدث على جانب الطريق صخباً ذا صريف خافت . وكمن لم يكن راغبا في ان يتوغل في مصيبة هذا الآدمي الذي التقاه هكذا على حين غرة ، كذا ايضا اخذ يتكلم على عجل ، بصوت أجش وتشجيع متصنع

ـ وليكن ، ان الامر تافه ... المهم هو انك حي ترزق !.. انا ايضا انظر . ـ اراه بريديخين راحة يده اليسرى التي اصابها بعض التشويه . ـ تصور ، انني بيد واحدة ادير عجلة القيادة ... وبها ايضا اعانق النساء . واذا كان ثمة ما يمكن العناق به فان ذلك يعني ان كل شيء لدى الرجل على ما يرام !

بدأ بريديخين يطلق قهقهات عالية ثم اندفع راكضا نحو السيارة وعيناه الكستنائيتان الجامحتان تتلألآن كما الضياء

- ٣ -

اراد اوستين ان يعود الى عمله السابق في ورشات التصليح ، الا ان صممه لم يسمح له بذلك . كل السيارات والجرارات والماكنات اصبحت الان خرساء ، غير مسموعة بالنسبة اليه ، تجري بلا صوت ، كما في السينما الصامتة ولم يكن اوستين يحدس عمل محركاتها او يحكم عليه الا بالرائحة او بالارض المرتجة تحت قدميه . ولم يعد يتمكن ، كما كان سابقاً ، من ان يحدد بدقته المألوفة الباعثة على الحسد ، موضع الداء في احشاء المكائن الحديدية عن طريق سماع اصواتها . فلقد ذاع صيته في كليوچوفكا – قبل الحرب – كميكانيكي تعلم الصنعة بنفسه بلا معلم كان يستطيع دائماً ان يعجل في تشغيل ابسط الاجهزة والالات الميكانيكية فتارة يوصل جهاز نقل الحركة بالسيور من جرار الى مذراة ، وطوراً يثبت مروحة يدوية الصنع على آلة تجفيف الحبوب ... لم يبق الان في المزرعة التعاونية من بين المعدات المتحركة جميعها سوى عجلتي جرار وحافلة بيكاب واحدة . أما بقية الاليات فقد سحبت منذ بداية الحرب لغرض الاستفادة منها في الجبهة كان في مقدور النسوة والصبايا أن يعملن على الجرارات وماكينات الحصاد الصالحة للعمل ، لكن ما ان يحدث عطب او خلل ما حتى تبدأ الدموع الانثوية تسيل مدراراً . وكم كان صالحا ومفيداً للمزرعة التعاونية في

الـوقت الحاضر وجـود انسان متخصص بـالميكانيـك مثل اوستـين ديدوشنيف لو كان عاد اليها من الحرب مثلما غادرها سابقاً ، سليماً معافى لا معوقاً من الدرجة الاولى . فأنى له الان ان يتفاهم او يعيش في وفاق مع المحركات ؟! ثم ان الاتصال فيما بينه وبين الناس هو الاخر من الصعوبة بمكان   تصرخ فيه بأعلى صوتك ، وان شئت فـاسترسـل صارخا في اذنه ، اما هو فيظل ـ كعادته ـ يحدق فيك ويبتسم ، كأنك تحدثه ابدا عن شيء ما سار ولطيف

حاول ڤاسينين ان يفرز لأوستين عملاً مناسباً : سائس خيل ، سائق حرارة ، خفيراً ، مراقب عمال في المزرعة التعاونية   راجع الرجل كل الاعمال والوظائف الملائمة التي يمكن ان تليق بالأصم الابكم اوستين غير ان اي عمل لابد ان يحتاج ، في سبيل انجازه ، الى شخص ان لم يكن يملك صوتاً ففي الاقل ان يملك سمعاً   ولكن الا يصلح ان يكون ساعي بريد ؟ ان البنت تاتيانا ڤاسينينـا ، مع انهـا تحمل البـريد وتـوزعه بانتظام ، لكنها صارت في الايام الاخيرة تخاف بعض الخوف ، ولو كان الامر يقتصر على الرسائل وحدها لهان ، غير ان هناك الطرود والنقود ايضاً ، ثم ان طريق البريد يمتد عبر غابة كولغانسكي ، حيث يمكن ان يحدث اي شيء لا تحمد عقباه   انها الحـرب ، وقد اصبحت الغـابة موحشة مخيفة . زد على ذلك ان البنية رقيقة شفيقة وحساسة عاطفية الى ابعد حد . عندما تجلب نبأ باستشهاد احد المقاتلين تراها تكـابد وتتألم وتعاني ، على حد سواء مع كل ارملة او ثاكل جديدة . ومن هنا فان المصائب والاحزان تدخل بيوت زوجات الجنود وامهاتهم في كليوچوڤكا دخولاً اشد دويا وضجيجا واعظم صريخاً وعويلاً .. خذ البريد في يديك

يا اوستين ، فعسى ان يساعد ذلك على التقليل من النواح والنحيب تصيح به ، تتظلم ، تستعطف ... ولكن هل ثمة من فائدة ؟! ساكت ، ساكن كالقبر !

بيد ان ڤاسينين ، وهو يعرف جيداً شغف اوستين الجاد بقطع الحديد ، لم يكن ليرغب في ان يحشره داخل المتاهات النائية للمزرعة التعاونية التي تعاني من شحة في الايدي الرجالية العاملة

سرعان ما عين اوستين طرّاقا في ورشة الحدادة ، بديلاً للفتى الذي التحق بالجبهة . كان يمطل الحديد في هذه الورشة العجوز پانكرات سيميونوڤيتش أفونين ، وبعبارة أبسط ، الجد پانكرات ـ كما كان الجميع ينادونه . كان رجلاً قصير القامة ، نحيف الجسم ، عريض المنكبين ، ذا لحية صهباء شقراء بلون قشٍ قدم به العهد اما فيما يتعلق بعدد سني عمره فهو محال على التقاعد منذ زمن طويل ، لكن الحرب اعادته الى كور الحدادة من جديد استقبل الحداد العجوز اوستين استقباله شخصاً يعرفه من زمن بعيد ، ونظر اليه نظرته الى مساعد امين يركن اليه

ـ اسمع ياپانكرات سيميونيتش ! وضح له بالمطارق ، أره كل شيء

ـ راح ڤاسينين يوصي الحداد بأوستين وقد جاء به الى ورشة الحدادة

وما حاجتنا ، امام السندان ، الى الحك باللسان ؟ على المطارق سيجري حديثنا . ـ نظر پانكرات الى أوستين بحفاوة ، من قمة رأسه الى أخمص قدميه ... نظر اليه بعينيه الذابلتين الباهتتين تماماً ، بفعل النار المتواصلة في كور الحدادة ، ثم غمزه مداعبا ـ والآن ، ألا نجرب ؟!

ناول اوستين الملطـاس[٣] ، وخطا هـو نفسه نحـو الفرن المتـأجج حرارة انتشل من الجمر بملقاطه العدة المتوهجة لـدرجة الحـرارة البيضاء ووضعها فوق السندان ذي القرنين . وبعد ان حول الملقاط الى يده اليسرى ، استل باليمنى ، من الفجوة الكائنة بين ساقه وجزمته ، مطرقة خفيفة ذات مقبض طويل وراح ينقر بها عدة الحديد الرباعية ، مزيحا عنها الغشاء الرقيق ذا اللون البني المصفر ، الذي تكون بعد تبريد المعدن المسخن ... صار لون قطعة المعدن المطروق ابيض مشوبا بالصفرة ، مثل لون كتلة من شمس الظهيرة.. نقر پانكرات وهو يمسك القطعة المعدنية بالملقاط ، نقر على حافتها السميكة نقرة خفيفة

«طاق» ، ـ دعت المطرقـة . «بام !» ـ طـرق الملطاس ، مستجيبـاً لدعوتها بتثاقل وكلال . «طاق» ، ـ سددت المطرقة ضربتها . «بام !» ـ هبط الملطاس على المكان المشار اليه

قف ، قف ! ـ اطلق پانكرات ، وقد توقف قليلاً ، صرخة عالية ثم راح يهدد اوستين بمطرقته مازحا ـ ايه ، يالـك ! أعجبت فاستـرسلت في الطرق ... ولكن هيا أرني كيف تطرق طرقاً اخف ! .. هز اوستين رأسه بلطف ، كما لو انه قد اقترف ذنباً

---

٣ ـ الملطاس (ملاطيس) : المطرقة الكبيرة .

- ٤ -

بشر ربيع عام اربعة واربعين بخصب وفير . كان اوستين ، وهو يحث خطاه مع باكورة كل صباح نحو ورشة الحدادة ، كان يتخطف في كل مكان أمارات الصيف المخصب بمتعة ومسرة ؛ الكثبان الثلجية قامت على مستوى واحد مع السياجات والعنابر ، لكنها لم تكن ملتصقة التصاقا مباشرا بالمباني بل تاركة بعض الفواصل والفجوات ؛ الاشجار كانت تجلل في الليالي بندى مثلج بهي ؛ الثغرات الموجودة على جليد الساقية كانت مغمورة حتى اخرها بالماء - بشير فيض كبير . وكثير من الماء يعني كثيرا من العشب وقد اخذ الناس ، مستوثقين من سنة خصب جيدة ، يعلفون بسخاء ظاهر قطعان الماشية التي هزلت خلال فصل الشتاء ، نافضين بجرأة وبلا تردد مخزونات الدريس والعلف في كل مكان ، في المزرعة التعاونية وفي بيوت الفلاحين ، وضعت الابقار نتاجها الجديد من العجول الصغيرة ... وفي الهواء البليل العليل راحت تعوم رائحة اللبن الحليب ، الى جانب روائح ربيعية اخرى لا يدرك كنهها ، يضطرب لها القلب وتثار فيه الهواجس

كانت فروسيا تختفي اياما بطولها في المزرعة التعاونية ، حيث تضع الابقار احيانا مواليدها اثناء الليل ، ولم تكن لتظهر في المنزل إلا مع الصباح . وقد استقبل اوستين ، ذات مرة في منتصف الليل ، عجلاً

صغيرا وضعته بقرتهم الخاصة . دثر العجل البليل ذا الجبهة البيضاء بقطعة من نسيج الجواليق وحمله من السقيفة الى داخل المنزل حيث الموقد الحجري الذي ينبعث منه الدفء

وقد لاحت ايضا في بعض الامكنة ، عند السفوح الشمالية ذات المنحدرات الشديدة ، لاحت بلونها الناصع البياض اقراص من الثلج وفي الصباح كان يطرأ على الجو ضباب بارد كثيف ، إلا أن الارض كانت تميل الى الدفء . وقد غدت الايام المشمسة اطول من ذي قبل ، وشمخت السماء معلنة عن زرقتها ... كانت الطبيعة تسارع الى معايشة مسرات وشواغل هناءات الربيع ونعمه . وفي أمسية من أماسي شهر ايار ملأت الاسماع تلك الانات المرتقبة المنشودة التي راحت ترسلها الضفادع من الساقية ومن البركة الغزيرة المياه . وكان هذا يعني أنَّ الارض قد تسخنت جيداً : لقد آن أوان البذار

غدت ورشة الحدادة في هذه الايام مكاناً مزدحماً للغاية بالناس وذا اهمية مرموقة في القرية . تراكمت الاعمال بكميات كبيرة جداً إلا أن الطقس الربيعي الملبد بالغيوم قد ايقظ في جسد الجد بانكرات جميع اسقامه المزمنة المتأصلة ، فكان اوستين غالبا ما يظل وحيداً امام السندان . لقد استنفذت الالات والادوات الزراعية التابعة للمزرعة التعاونية قواها ، استهلكت ، بليت تماما ، وليس هناك ما يمكن تصليحها اوترميمها به : لم يبق في مستودعات محطة الالات الميكانيكية قطع غيار ولا اية قطعة معدنية . ان التلاميذ ومعهم جميع السكان القاطنين في البيوت الواقعة بعيداً عن الطريق العام نبشوا كثيراً وسحبوا الى ورشة الحدادة ، مرات عديدة ، جميع القطع الحديدية الصدئة

التي عثروا عليها . كما ان ڤاسينين نفسه ، وهو يسرح عند محطة القطار بمفرده في اغلب الاحيان ، كان يطلب بالحاح - كما يفعل الغجري - شيئاً ما من العاملين في السكك الحديد ومن مرافقي القطارات الصارمين الذين ينقلون من الجبهة الى اعماق الاورال ما تحطم من طائرات ومدافع ودبابات وجرارات قاطرة ... ولم يكن من السهل ادخال القراضات المعدنية المختلفة ، التي جلبت الى ورشة الحدادة ، في حيز العمل . لكن الحاجة ام الاختراع . فكما استطاعت النساء ان يتكيفن لتفصيل الملابس لأولادهن من شتى انواع الخلَق ، كذلك راح الحداد يرقع ما امكن ترقيعه من الحديد الصالح للطرق ، مجددا ومصلبا اياه في النار والماء ان شحة المادة المعدنية المطروقة غالبا ما كانت تدفع اوستين وپانكرات نحو اللجوء الى العمليات المعقدة ، الى لحام الحدادة . وكانت عملية اللحام تتطلب وجود الفحم الناعم المنتقى «البندق» والرمل النهري الاسود اللون الذي يسمونه الصهور . لقد وجب على الحداد ان يكون على مستوى عال من المعرفة والقدرة لكن كان يترتب عليه قبل كل شيء ان يمتلك طاقة متزنة جلدة وثباتاً شديداً : كانت الملاطيس تدوي طوال النهار امام الكور ، ورنين الطرق الخفيف المتواتر ، المنبعث دونما انقطاع ، ينتشر فوق سطوح المنازل ليثير في نفوس الناس البهجة ويبعث فيها النشاط .. إلا اوستين ، فهو الانسان الوحيد الذي لم يكن يسمع هذه الاصوات ، على الرغم من انه هو الذي يصنعها ويبدعها

انه يعيش الان في صمت مطبق عميق ... كذلك السكون الذي كان يحسه أيام طفولته الصاعدة ، عندما كان يملأ رئتيه وهو يعوم في البركة

بكمية كبيرة من الهواء ثم يغوص بعيـداً تحت الماء ويسبـح ، مفتوح العينين ، في القعر الصامت الابكم ذي المياه الضاربة الى الخضرة . وها هو ذا العالم الصاخب المألوف لديه يبدو الان وكأنه قد حجب عنه تماماً بطبقة سميكة من مياه جامدة صامدة ، لا سبيل الى اختراقها او النفاذ منها . غير انه لم يكن اصم ابكم من يوم ولادته ، هو الان كثيراً ما يعتمد على حافظة السمع عنده . وهي التي تنطق له اليوم صياح الديك ، خوار البقرة ، ضجيج المطر ، صريف الثلج ... وكل ذلك العالم الحي المتحرك الذي كان يتأمله من حوله ، لكن دون ان يسمعه . كان يدرك ويستوعب ما يحيط به بعينيه فحسب ، وبالرائحة ايضـاً فحيثما حـل اكتنفه صمت رهيب كسكون القبر ! لم يكن يسمع حتى سعاله . لكن في هذا الصمت كانت تحيى ، بانتباه ودقة ، خواطره وافكاره الكلمات الخفية غير المنطوقة التي لم يكن يسمعها احد سواه . كان احيانا يحدق ، اثناء الحلاقة ، في وجهه باهتمام وعمق وهو واقف او جالس امام المرآة . لم يبد له متغيراً ألبتة ، لقد لاح له مألوفاً تماماً ، فهو وجهه السابق الذي عرفه قبل نصف عام ، أو قبل خمسة اعوام مضت ، يوم كان سليماً غير مصاب بالصمم والبكم . وبدأ يؤمن ، متهيبـاً ، بأن هـذا الخلل الذميم الذي حدث في داخله ، والذي لم يؤثر مطلقاً وبأي حال في مظهره الخارجي ، هو خرْق مؤقت مثله مثل أية علة بشرية عابرة . وقـد زاد اعتقاده في ذلك ايضاً أنَّ الاصوات كانت تعوده ، تؤوب اليه في احلامه كان يغني ، يضحك ، يتحـدث مع فـروسيا والصغـيرين ... غير ان الصحو كان يقطع الصوت فيحس ، بعد ان يهب مستيقظاً من نومه ، يحس من جديد كأنه مغلف ، مختوم عليه بإحكام من جميع الجهات

راحت فروسيا ، محـاولةً التقليـل من شأن العطب الـذي أصاب زوجها ، راحت تسر الى صويحباتها ، زميلاتها في العمل
مع انه كان في شبابه ، كما تعلمن ، يغني ، يعزف على الاكورديون ، لكنه لم يكن مهذاراً طلق اللسان كثيراً . نسمع الى الاخرين وهم يثرثرون كأنهم يجدلون الدانتلا بألسنتهم ... أما أوستيا ، زوجي ، فهو اكثر ما كان يرى ساكناً يلامح من حين لآخر بنظرات كلها لطف ومودة . وهكذا استطاع ان يستدرجني ، يستميلني ، يوقعني في شباكه ... بنظرات عينيه
واليوم هي تشفق عليه وتحبه ، هو المصاب بعاهة ، حباً اكثر رقة وحناناً من ذي قبل ؛ تحبه بامتنان لاهتمامه اللطيف بها ، في الماضي وفي الحاضر ، ولأنه قد اجتلى فيها روحها ، دون اي شيء آخر
كانت فروسيا في شبابها فتاة طويلة نحيفة ، تخيط لها خالتها جميع تنوراتها وفسـاتينها اذ كـان من النادر ان يـلائم جسمها شيء من الألبسة النسائية التي ترد الى متجر القرية . وقد عانت ايضاً ، جراء طول قامتها ، من حالات احراج اخرى ؛ ففي المدرسة كانت تجلس على المقعد الاخير ، وفي النـادي تراهـا ضمن الصفوف الخلفيـة أما الحفلات الساهرة وما يتخللها من فعاليـات رقص وغناء فـانها ، هي الاخرى ، لم تجلب لها إلا القليـل من المسرة : فأي من الشبـان كان يرضيه ان ينزل الى حلبة الرقص بصحبة فتاة أطول منه قامة ؟! .. غير انها بالنسبة لأوستين كانت مناسبة تماماً ، قلباً وقـالباً ... وبعـدما أنجبت له ولدين ، الواحد تلو الاخر ، تضاعف احترامه لها . ثم جاءت الحرب ، كارثة الكوارث على وجه البسيطة كلها

لم يستطع اوستين ان يتكيف مع وضعه الجديد إلا بصعوبة وجهد لكنه كان ـ وهو يتطلع بـأمل مـا الى الشفاء ، الى البـرء مما اصـابه ـ يتوجس خيفة من ان عاهة البكم والصمم هي كالداء اللدود الفتاك ، ستنمو منتشرة في جسمه كله ، تمتصه وتستهلكه برمته ، تطفىء النور في مقلتيه وتقمع التنفس في رئتيه ... فراح يضاعف ، متعجلاً ، من حبه فروسيا ، يشفق عليها ، يلاطفها ، يداعبها بنشوة روحية عارمة وكأنه ينظر اليها نظرة وداعية تلتهب حباً وحناناً ... وقد غمره سرور يسمو عن الوصف حين عرف انها حامل

هل تسمع ؟.. ـ قالت له هامسة ذات مرة وهما ضجيعان يلفهما فراش الزوجية .ـ آه ، ولكنك لا تسمع شيئاً

عثرت فروسيا على راحة يده فوضعتها ، من فوق قميص نومها ، على بطنها . فهم اوستين ، حزر كل شيء ولمس بيده لمساً خفيفاً رفيقاً بطن فروسيا الذي كان ما يزال مستوياً منبسطاً كبطن فتاة عذراء

منذ زمن بعيد لم تضع النساء عندنا مواليد جدداً ... سأكون انا الأولى ! .. هل تسمع ؟

وسر كذلك كوزما دانيلوفيتش ، الذي كان لا يفتأ يبكي في سره مصير ابنه اوستين السيء الحظ ! ولكن الله ، تأمل ! ، لم ينس اوستين فعلى الرغم من انه مصاب بعاهة الا انه رجل سليم معافى داخليا . يعني ان سلالة ديدوشيف مستمرة في العطاء ، صالحة للبقاء أجل ، ان الاحفاد سيترعرعون ، ولسوف يصونون شرف العائلة . فهم واوستين الامل ، كل الامل ، بالنسبة للعجوز كوزما دانيلوفيتش . لم يبق لديه من احد سواهم موضعا لثقته ورجائه . فابنه البكر قد استشهد في ضواحي

موسكو ، وزوجته العجوز واراها التراب منذ عهد قريب ، وهو نفسه يقف اليوم واحدى قدميه على حافة القبر

اخذ اوستين على عاتقه ـ رأفة بزوجه الحامل ـ الكثير من اشغال فروسيا المنزلية صار يحمل يومياً المـاء على النبّـوت[4] من البئر الى الدار ، يوقد الفرن الحجري كل صباح . وحين يصـادف ان تتأخـر فروسيا في حقل تربية المواشي التابع للمزرعة التعاونية ، كان يقوم هو نفسه بحلب البقرة وبتحضير العشاء ، ثم يستقبل ، وهو في غاية التعب والاجهاد ، زوجته استقبالاً لطيفاً عطوفاً ، شاعراً باللذة من فكرة انه اذ يقوم ، قدر المستطاع ، بمساعدتها فذلك لكي تتمكن هي من أن تتهيأ لأداء مهمتها الانثوية الرئيسية على الـوجه الاكمـل . ومع ان الامـر المترقب هو من المسائل الاعتيادية المألوفة الا ان أوستين كان في حال من القلق لم يمرّ بها في حياته قط . وكان ينتظر ولادة الطفل انتظاره حدوث معجزة ما ، مصدقاً وغير مصدق أنها ستقع .. ولدا ستهبه فروسيا أم بنتا ، كان الامر لديه سواء المهم هو ان يكون طفلاً صخابا صراخا ، قويا معافى أجل هذا ما كان يرجوه ، يتمناه لأجـل الدار ، لأجـل فروسيا بخاصة فكر اوستين انه عندمـا تستقبل الاسرة اطفـالاً اكثر صخبا واشد ضجيجـا لن يكون حينئـذ صممه اللعـين ملاحظـا او محسوسا بما هو عليه الان ، ان الحياة ستغدو اكثر اشراقـا وأعظم فرحة...

ما كادوا يلتقطون انفاسهم بعد موسم البذار حتى دهمهم موسم الحش الذي قاد الى المروج والمرابع سكان القرية جميعا . أرجأ أوستين

---

٤ ـ النبوت : مقرن الدفة (الحمّالة التي يعلق في كل من طرفيها دلو وما اليه)

عمل الملطاس اسبوعا بكامله لكي يمضي مساندا جماعة الحاصدين الضعيفة المتكونة اصلاً من النساء والفتيات ، باستثناء فيودور بريديخين وسيميون غروليوف ذي الساق الاصطناعية الخشبية ، اضافة الى ستيپان ڤاسينين الذي ثبت بالسير الجلدي مقبض المحشة الى جُذمور[٥] يده اليسرى المبتورة . كما بذل كوزما دانيلوڤيتش جهده في ان يقدم ، قدر ما يمكنه ، المساعدة للحاصدين . فكان يصلح المحشات ، يشحذ المناجل ، يقلّب بالجرافات الخفيفة ـ على قدم المساواة مع الصبيان ـ الدريس في الاكوام المتراكمة ، ويقدم النصائح الفتيات عن كيفية التحكم بأكداس الدريس المحصود

كان اوستين يتحرك ـ بقميصه المسودّ الصدر والكتفين ـ على الجناح الأيمن ، في الخط المتعرج من جماعة الحاصدين والحاصدات وكان احيانا يرسل من بعيد نظرة ترحيبية باشة الى والده ، متذكرا كيف كان ال ديدوشيف في مواسم ما قبل الحرب يخرجون كلهم ، عن بكرة ابيهم ، الى هذا المرج الصغير . وحتى في اوقات الاستراحة كان كوزما دانيلوڤيتش القوي الساعدين ، المكتنز البدن أيامذاك ، يظل وهو يعد لنفسه «سيكارةلف» يعمل ، ساحبا معه كلاً من ولديه أندري وأوستين وما أكثر الارشادات والتلقينات الذكية التي كان يسمعها اوستين من والده ! انه يستذكر ، على سبيل المثال ، ان افضل الدريس هو المحصود من حافات رقاع الاراضي المزروعة بحبوب الحنطة ومن الاماكن المرتفعة . ان مثل هذا الدريس يدخر للماشية الناشئة الفتية او للعجول والحملان المفصولة عن امهاتها اما الاماكن المنخفضة

---

٥ ـ الجذمور : اصل الشيء او اوله

الـرطبة ، ذات الاراضي البـور ، فيأتي منهـا دريس خشن ، حامض يصلح للكباش والخيل والبهائم المستخدمة في مجال النقل

«كـانت حيـاتنـا تسـير بمنتهى البسـاطـة والألفـة الـوالـدة وأندريوشاحيان يرزقان ، والوالد لا يشكو من علة أو وهن أو عجز إن شئته على الجرار ، وان شئته على الآلة الحاصدة الدارسة ، اوشئته في ورشة النجارة تجده مستعداً ابداً . أما الآن ، فانظر اليه تره اشبه ما يكون بشجرة قطعت من اسفلها . هي لا تتداعى الى السقوط ، إلا انها لم تعد ، في الوقت نفسه ، قادرة على الوقوف منتصبة . لقد تقوس ظهر الوالد واشتعل رأسه شيباً وما عاد يجد له بين رجال كليوچوڤكا من عمل اومكان ، لم يبق امامه سوى ان يلهي الصبيان بالاقوال الفكهة المسلية وسوى ان يحرس عنابر المزرعة التعاونية» ، ـ اخذ اوستين يتفكر متعبا كليلاً ثم راح ، وهو يلوح بالمحشة ، يشق طريقـه عبر جـدار من الغلال والحبوب الخضر ، نحو والده الذي كان يقف فوق أكمة صغيرة

ـ ٥ ـ

في صبيحة اليوم التالي كان اوستين يشتغل في الورشة وحده . فقد انحرفت من جديد صحة الجد پانكرات ، والله أعلم الى اي أجل . وفي مثل هذه الحالات كان اوستين يطلب لنفسه مساعداً . وكانوا يختارون له في عمل الطرق عادة ذلك الفتى الفاره الحثيث والفطن الأريب كوليا أوسينكوف . حين جاء أوستين بطلبه الى ادارة المزرعة التعاونية رأى حشداً من الناس كان يجري هناك توزيع الناس الصباحي المألوف وتوجيههم نحو أعمالهم . كان يقف على سقيفة المدخل ڤاسينين ، ملوحاً بيده الوحيدة وهو يصدر اوامره التي حاول اوستين ان يدرك فحواها من خلال تعابير وجه مدير ادارة المزرعة التعاونية

اليوم سنعمل على الوجه الآتي الذين هم أكثر قوة ينقلون الدريس ؛ والذين هم اقل تحملاً يستأصلون البطاطس أما الطاقة العظمى فادخرنها ، ايتها النسوة ، لأجل الحصاد انظرن ، اية سنابل قمح ترتفع عالية ، تناديكن هناك ! ـ كان ڤاسينين يتكلم بصوت واطىء لكنه ذو نبرة حازمة صارمة

وصاحت النساء طارحات ، بالمقابل ، همومهن وطلباتهن

الصابون ، وعدتنا بأن سنناله ، ايها المدير ! اين هو الآن ، خبرنا ، هذا الصوبيون ؟!

والملح ، متى سيجلبونه ؟

ـ هكذا اذن ، ايتها النسوة ! ـ اخذ فاسينين يمط في كلامه ـ ولكن لماذا لا تطالب كوريوشينا بألواح الخشب ؟

- لأنك ستقول ان الواح الخشب نحتاجها لأجل زريبة البقر .ـ اطلقت نيورا كوريوشينا ضحكة ساخرة ذات معنى

ـ إليكن ، ايتها النسوة ، ـ واصل فاسينين حديثه ـ خذن مثالاً للوعي من سواقة الجرارة كوريوشينا

وقبل ان يتسنى للنساء التجاوب مع كلمات مدير المزرعة التعاونية ، ارتفع من جديد صوت نيورا

- لا تعطني الواحا خشبية ، بل أعطني رجلاً .. متى كان الحبيب الى جانبي تكن الالواح الخشبية وكل الاشياء الاخرى

أرسلت احدى النساء صفعة خفيفة الى قفا صبية كانت تحوم بقربها ، ناهرة اياها «هيا اجري الى بيتكم ... مالك مددت اذنيك ؟! ...»

ـ حقـ ـقاً ، ما هو كذلك يعني انه كذلك ، ـ قال فاسينين وهو يحك صدغه .ـ نصف سكان القرية عندنا من الارامل وزوجات الجنود ، ثم هاكم الصبايا اللواتي بدأن يدركن سن الرشد .ـ وأشار بعينيه الى سرب صغير من الصبايا ذوات الخمسة عشر والستة عشر ربيعاً ، كن واقفاتٍ عند احدى المصاطب وفي ايديهن مجارف العمل .ـ هن ايضاً يجب ان نعطيهن أحبة ، عرساناً .لكن من اين نأتي بهم ؟ ... سننتظر حتى النصر

شيء ما بدأ يحدث خشخشة في فوهة القمع الاسود اللون لمكبر

«الصوت المثبت فوق عمود الكهرباء ثم انفجر مدوياً ، بعنف واحتفالية ، صوت المذيع ليفيتان

ـ.. مكتب الانباء السوفيتية

- هسّ ! ... ـ ما ان بدأ فاسينين حتى تجمد في منتصف الكلمة ، والناس الحاضرون ايضاً صمتوا دفعة واحدة : لو طارت ذبابة لسمعتِ حفيف اجنحتها

ـ... أمس ، الثالث من تموز ، تمكنت قوات الدبابات لجبهة بيلوروسيا الثالثة من الصوب الشمالي الشرقي وجبهة بيلوروسيا الاولى من جهة الجنوب ، تمكنت من ان تندفع الى داخل مدينة مينسك ، مطاردة قوات العدو المتقهقرة ، ملتفة حول أجنحة تجمعها ... وقبيل انتهاء النهار كانت عاصمة جمهورية بيلوروسيا السوفيتية محررة بكاملها من يد المحتلين الفاشست !

اما بقية كلمات المذيع التي كانت تبلغ عن عدد القوات العسكرية الهتلرية المطوقة في ضواحي مدينة مينسك فقد غرقت وسط هتافات «أورا !» المتباينة الاصوات

وقف اوستين بلا حراك ، غير واجد سبباً للاندماج في الابتهاج العام الشامل لهذا الحشد الصغير من الناس ذوي الملابس البسيطة المتغايرة الالوان

هل سمعت ، ياأوستين ؟ لقد استولت قواتنا على مينسك ! ـ هتف فاسينين وقد دنا ، راكضاً ، من اوستين ثم راح يعانقه .. ابتسم اوستين مرتبكاً ، دون ان يدرك ـ على كل حال ـ الدافع الحقيقي لاحتفال ابناء قريته

عندها خطف فاسينين غصينا أملودا ثم اخذ ، وهو يردد : «تنحين ، ايتها النسوة ، تنحين جانبا» ، اخذ يستنبت على الارض الرملية ، بحروف متقطعة مضطربة ، كلمة «مينسك»

شرع اوستين يهز رأسه ، أمسك بياقة قميصه ثم فتحها وكأنه صار يشعر بحرارة الجو

ما ان تفرق الناس منصرفين حتى اقترب من فاسينين وبيّن له بالحركات والايماءات ان پانكرات متوعك الصحة ، وان الحاجة تدعو الى ارسال كولكا أوسينكوف لكي يساعده فترة من الزمن في ورشة الحدادة

أمس استلم نيكولاي دعوة الى الخدمة العسكرية ، - تكلم فاسينين ولوح بيده موضحا . وبعد ان سكت لحظة أضاف قائلاً بصوت خافت - لكن ابنتي تانكا قد تعلقت بالفتى تعلقا تاما ... واذا حدث له - لا سمح الله ! - شيء ما من قبيل ... فسوف تقضي الصبية نحبها غما علية

لقد استطاع فاسينين ان يتحدث الان بشجاعة عن هذا القلق الخفي للغاية مع شخص واحد فقط ، هو اوستين الذي راح ينظر اليه بفطنة لكن بدون اجابة ، كما الايقونة تماما

- ٦ -

ذات مرة ، في ظهيرة يوم خريفي صباح لكنه بارد ، اخذ اوستين يعد بنفسه عدة اللحام ، غير منتظر مجيء پانكرات ، بذر قدراً من «البندق» والرمل ، قطّع بالازميل قضيباً معدنياً معداً الى اجزاء دفع بها الى جمر الفرن النافث نيراناً ومضى ليدخن سيكارة تحت أشعة الشمس وسرعان ما شاهد ابنه پاڤليك يسير في الطريق حاملاً بيده صرة صغيرة «هاهو ذا الفطور قادم» ، - بدأ اوستين يبتسم لابنه المقبل نحوه . وفي حين كان اوستين يأكل طعامه تناول پافليك لوحة من الخشب الرقائقي وقطعة من الطباشير ، كتب لأبيه كلمات وارقاماً تبلغه بالاخبار المنزلية ساعدت ماما في كنس باحة الدار وفي تقطيع الكرنب

ضم اوستين ابنه - في شيء من الغلظة - الى صدره وكأنه يريد ان يجعله يسمع في جسمه الصامت نبضات قلبه الحنون

وفي تلك الاثناء لاح في فتحة الباب سائس الخيل «جدو» غاڤريلا ومن خلفه خطْما حصانين . وضح السائس بالاشارات الغاية من مجيئه ترك الجوادين عند مربط الخيل وبعد ان دخل الورشة ، جلس على المصطبة جنب اوستين انهى اوستين ، على مهل ، تدخين سيكارته اللف ، اخرج درجاً فيه أطقم من الحدوات والمسامير الخاصة بحدوات الخيل . وبعد ان تناول المطرقة من فوق السندان خرج منطلقاً الى

الفضاء حيث الحصانان

كانت الفرس المسنة الصهباء ، ذات العطفين المحكوكين المتدليين والبطن المرتخي ، تقف ناعسة على قائمتيها القصيرتين المنفرجتين نحو الجانبين ، وكأنها تحتذي خفين مهلهلين باليين تماما اما حافراها ، اللذان كانت تغطيهما نتوءات دائرية ناعمة ، فقد تصدعت حافتاهما المقوستان المثلومتان ... مسح اوستين برأفة على غارب الفرس ثم رفع قائمتها اليمنى وعاينها ، هي وما تبقى من حدوتها العتيقة المسحوجة الممسوحة . ليس عملاً ، بل عقوبة تصليحك مثل هذه الحوافر . لوكان بانكرات هنا لما سكت ، لوجد كلمة قوية منشطة تليق بكل من الفرس والسائس معا . لكن اوستين نعّل ، بصمت وبسرعة الفرس المسكينة ، قضب حافات الحوافر المثلومة ثم ساواها بالمبرد .. عادت الفرس وكأنها قد اقتنت حذاء جديدا ؛ وقفت ثابتة فوق العشب الأملس الزلق ولاحت كما لو انها قد استعادت شيئاً من شبابها !

اما الفرس الاخرى الكستنائية اللون ، التي كانت ما تزال بعد في عزّ فتوتها ، تميزها حوافر ذات اغشية لامعة ملساء ، اما هذه فقد تصور اوستين انه سوف ينعلها في وقت اسرع . لكن الكستنائية كانت مضطربة ، غير هادئة ، تشذر بعينيها ، تحرك بسرعةٍ اذنيها وتجفل من ادنى لمسة

ـ طررر ، مكانك ! هيه ، ماذا دهاك ؟ ... مهما وثبت الفرس فانها تظل في النهاية داخل الطوق أما أنت فتحملي قليلاً ، ها ، ها ... ـ راح غاڤريلا يلاطف الفرس بصوت خشن جهير ويلف ، أقوى ، فأقوى ، زمام اللجام على مرفقه . غير انه لم يتمكن من السيطرة على زمام الفرس

الفتية

ـ ابتعد والا كدمتك !ـ صاح غافريلا ، محذرا پافليك الذي كان واقفا قرب المربط

تناول اوستين المقود الجلدي من يدي السائس وربطه الى عارضة خشبية معمولة من جذوع الشجر . ارخت الفرس رأسها صاغرة ،لكن ما ان تسنى لأوستين ان يمسك قائمتها الامامية ليضعها في الجلّاخة حتى تنحت عنه مجفلة نافرة . وفي اللحظة ذاتها أطلق غافريلا صرخة وبدأ يثب على احدى ساقيه ، نافضاً وهو يتجشأ ساقه الاخرى التي تعرضت للدوس . ثم اندفع فجأة ، وقد التوى وجهه من شدة الالم نحو الفرس وانهال بقبضة يده على وجهها ضرباً بكل ما لديه من قوة ارتمت الكستنائية الى الجانب سريعاً ،فلوى الزمام المتوتر رأسها بعنف وألم ، واحتكت الشكيمة المعدنية بشفتيها قفزت الفرس شاخرة الى الخلف ،نحو المربط ،شبت ثم انطلقت ـبعد ان قطعت الزمام ـتجري نحو البرية . لم يشاهد أوستين كيف اصابت الفرس پافليك بركلة وطرحته ارضاً .ركض مسرعاً نحو ولده ، اخذه في يديه ونظر في وجهه كان پافليك غائباً عن وعيه

ـ غْئيئيئي ... أوئي ... ئي !ـ بدأ أوستين يصرخ بضراوة وهو يتطلع الى عيني ولده شبه المغمضتين . اقترب غافريلا راكضا ، الصق اذنه في صدر الصبي ، ملطخا خده بالدم

ـ يتنفس تنفسا قصيرا . هلموا به سريعا الى الموظفة الصحية ،

ـ اعتصر السائس كلماته وهو مصعوق رعبا وعجزا

- ٧ -

لم يعد پاڤليك الى وعيه الا في المركز الصحي ، حيث جاء به اوستين ازالوا بالغسل التراب والدم عن وجهه المتورم ، ضمدوا له خدوشه فابتسم لوالده ، شاعراً بالذنب وسار من المركز الطبي الى البيت بنفسه . اما اوستين فلم يستطع بأية حال ان يعود الى سابق هدوئه ، ان يتخلص مما به من قلق وانفعال ومعاناة ... ظل مبهوتاً ، يسير بشكل آلي تلقائي جوار ولده ، ممسكاً به - غير مصدق عينيه - من يده حياً عزيزاً غالياً ، هذا الذي كاد قبل قليل ان يذهب منه هدراً وتهوراً

بعد ان اوصل ابنه الى البيت عاد ثانية الى الورشة ، شرع يلتقط - نابذاً - من الفحم قطع الحديد المتقوضة التالفة بتأثير الحرارة المفرطة ... ثم جلس يستريح ، بعض الوقت ، عند النافذة ، وفجأة حل محل الصدمة ، الهزة التي انتابته ، اعياء بل نعاس مباغت ، سريع ، غير طبيعي ... أمام النافذة كانت ترتع في سكينة - كما في المنام - عجول فتية على المرج الصغير ذي العشب الباهت الخضرة ، راح ينفث دخانه جرار يسحب خلفه مقطورة شحنت حتى حافاتها بالدريس ... كان كل شيء يتحرك بدون صوت وبشيء من البطء . في حين اخذت تضرب النافذة المغبرة نحلة كبيرة طنانة . ساعية الى الافلات نحو الفضاء الطليق . راح اوستين يرنو طويلاً وبلا تفكير اليها

شعر بغتة بخطر مبهم ، وهمي لاح له ان في السماء ، في الكوى الزرقاء ، ثمة شيئا ما قد تغير تغيراً مضطربا ، منذراً بالأذى ، صار يطن طنينا دقيقا ، رفيعا ، غير واضح ... تلفت اوستين حوله ، هـز رأسه وتوتر بكامل كيانه ، حتى انه أغمض لبرهة عينيه ، جاهداً أن يلتقط ، يلمس ، يحس ، يدرك ذاك الشيء الذي بدا له طنين بعوضـة خافتاً قصيا : ميلاد صوت

جلس أوستين هكذا نحواً من دقيقتين اثنتين كأنه يتسلل عميقاً ، يـوغل بنهم ولهفـة في ذاته ، في احسـاسه المبهم هـذا ، معتبراً تلـك الضوضاء الغريبة في اذنيه لعبةً شريرة ، مغالطة اخرى جـديدة من مغالطات وثاءته ، عاهته ... لكنه ادرك فجأة ، باحساس الجندي ، ان هذا ليس تشوّف بعوضة اطلاقا ، بل هوذلك الهدير الكامن في الذاكرة ، المخيم عليها ابد الدهر ، يستفز الروح ويقشعر منه الجسد ؛ هديـر الموت المجنح ؛ المشْرَع نحوك من أعالي السماء

«اي نعم ... يحلقون هم الخسيسون الاوغـاد ، لعنهم الله ! هـا انهم ، ويل لهم ! يقتربون خفية ، على رويدهم . لكن ، من ذا الـذي تستهدفون قصفه هنا ؟ العجول الصغيرة تلك ، اياي ، ام من ؟.. يالكم من سفلة لئام ! ..» ـ أزبد أوستين من بغض قديم ، شاعرا بالعجـز المأساوي الذي يلف قريته الحبيبة وبعدم قدرته هو على ان يحميها ، يدرأ عنها الهدير الزاحف نحوها من قاذفات القنابل المعادية . راح ، وقد انقبض في سره ، ينظر بعناد الى السماء ، بـاحثا عن الطـائرات المألوفة ، بلونها الاخضر الموحل وبصلبانها السود المعقوفة ، لكنه لم يشاهد شيئا . بيد ان الازيز المرعد المتوعد لم يهدأ ، بل اخذ يـزداد

ويقوى . هز أوستين رأسه   مـا هذا الـذي في داخله ؟ أهـو حلم ام وسوسة شيطان ؟!

«ززززو .. ززز .. ززو .. ووو» ، ـ كان الصوت يلامس مسمعيه ملامسة اكثر جلاء

فجأة رأى النحلة الكبـيرة الطنانـة التي ما فتئت تضرب بـاصرار ومثابرة في زجاج النافذة . ضغط عليها عفوياً ، دون ان يفكر ، براحة كفه فأختفى الصوت   افرج اوستين عن النحلة فبـدأت هذه تطنطن بقوة ، معيثة بالزجاج ، واذا بالكـون كله يمتـلىء مرة اخـرى بخطر القصف الجوي

وقف اوستين متسمراً ذاهلاً ، خافق القلب ، يتملكه شعور بالهلع والبهجة في آن معاً امام الحياة ، امام تلك الطاقة الصوتية التي انبعثت فيه من جديد بعد ان كانت صلته قد انقطعت بها ، نسيها ، اختفى عنها اختفاء اكيداً يحميه درع واق لا نفاذ منه . والان ، تحطم الدرع ، تهرأ كاشفاً اوستين امام الحياة امام الوجود النـاطق الذي راح يعلن عن نفسه ، بجلاء اكثر ، مع كل دقيقة تمر ... كصرير باب غير موصد كشقشقة عصافير تحدث ضوضاء فوق السطح ، كطقطقة جمر متقد في الكانون

لم تكن الاصوات تبلغ سمعه بعد بوضوح تام ، بل كأنها كانت تأتيه عبر حاجز قطني ، ولذا بدت غير حقيقية   فلم يصدقهـا ؛ لم يصدق عودته من اسر الصم البكم الذي كان قد وقع فيه قبل اشهر عديدة ، بفعـل الانفجار الهـائل الـذي احدثتـه تلك القـذيفة التي سقطت في مـوضعه ... وبعـد محن ومصائب طـويلة مـرت به في المستشفيـات

العسكرية ، سُرِّح من الجيش المحارب باعتباره معوقاً . ورحل الى اهله في القرية

تسللت الى باب الورشة ، خلسة ، كلبة سائبة وراحت تشمشم في الزاوية ، غير منتبهة الى وجود اوستين عند النافذة . لوّح لها اوستين مهددا ، ثم راح يصرخ بها ناهرا

غي... ئي... ولي!

انكفأت الكلبة بسرعة نحو الباب وهي تهر هريرا خافتا . اما اوستين فقد وقف مذهولاً من فرح وخوف ، بعد ان سمع هريرها الخفيف وصوته المتلعثم . ثم أخذ يمشي بهدوء ، ذهابا وايابا ، على ارضية الورشة الترابية ، حاملاً في سره ـ بعناية وحرص ـ النبأ النفيس ، مسروراً به وغير مصدق . ولكي لا يُنفر بل ليرسخ هذه الفرحة ويؤكدها ، تناول المطرقة ونقر بخفة على السندان اصطدم رنين المعدن رخيما بأذنيه فتلقف بمتعة وتلذذ صوت تماس المطرقة والسندان . كانت مثل هذه اللحظة تتأكد ، فيما مضى ، باليد والعين فقط . اما الان فهو يسمعها سمعا .. وكم يبدو مهماً مثل هذا الامر بالنسبة للحداد أن يسمع صوت المطرقة !

أخذ اوستين وهو يشتغل بالمنفاخ يرمي في الجمر المتوهج بعضا من قطع الحديد ، وحين احمر لونها تناول الملقاط وانتشل من الجمر الابيض قضيبا حديديا متوهجا ووضعه فوق السندان . كانت تقف على طول الجدار عدة مطارق وملاطيس ، بعضها الى جنب الاخر حسب

قاماتها ، مكونة شكلا هرميا منسقا ... اختار اوستين الملطاس الاوسط ثم لوح ، وهو يمسك المعدن المطروق بملقاطه ، لوح بالملطاس الناطق الذي غدا جراء ذلك ، خفيفا في يده . وبطاقة متجددة وحماس بهيج ، ظل يمطل الحديدة اكثر من ساعة ، صانعا منها اسنانا للمسلفات . وفي لحظات الاستراحة والتدخين كان يجلس مواجها الباب ، منتظرا بلهفة وقلق مجيء الناس ، ماسحا موجات العرق عن جبينه .. كان يعيش تقريبا ذلك الاحساس الذي يحمله الانسان وهو يقترب بوجل ـ بعد غياب طويل ـ من مأواه الحبيب ويفكر كيف سيتلقونه ، أية جلبة سيحدثه قدومه المفاجىء هذا ؟.. ومع كل لحظة كانت تنمو في داخله اللهفة الى مشاطرة أي من الناس فرحته العظيمة هذه ، ولم يعد راغبا في ان يبقى وحيدا اكثر من ذلك . غسل يديه وبدأ يتأهب للذهاب الى داره

بعد ان خرج اوستين من الورشة حاد عن الطريق وراح يمشي الى اسفل ، عبر المرتع مباشرة ، بخطوات سريعة نحو بيوت القرية

- ٨ -

فوق شجرات الحور الرجراج الضخمة القائمة عند البركة كانت غربان القيظ تصرخ بفاعلية مرحة ، مجتمعة في اسراب مرتدة ، ومن سطوح العنابر والسقائف راح يتعالى في روح قتالية بهيجة صياح ديكة بديعة مختلفة الالوان والانواع ، وفوق الرؤوس كانت تحوم خطاطيف جميلة جذابة ، وفي المرابع والمرجات الصغيرة المخضرة امام نوافذ البيوت كانت ترتع ، هنا وهناك ، متبخترة مزهوة ، بطات ربلات[٦] تتربص وتترقب في حذر وغلو وغيرة حاقدة وهي تحرس نتاجها الناشىء النابت حديثا

عندما حاذى اوستين واحدة من هاته الاوزات ربات العيال ، اندفعت الام الفتية ، في اللحظة ذاتها نحوه مقوسة عنقها بضراوة و فحت فحيح أفعى حانقة . توقف منتظرا باستسلام لذيذ إقبالها عليه وبسط في وئام يده للقائها كي يمسدها ، يمر بها على رأسها السنجابي المستطيل ومنقارها الأحمر المفلوع ، المنفرج في غضب عنيف

كل هذه الاصوات التي لامست اذني أوستين : فحيح طائر الاوز هذا المنذر المهدد ، ونعيب الغربان ، والصرير الخشن الفظ الذي ترسله

---

٦ ـ ربلات : سمينات (مفردها ربلة) ، كثيرات اللحم . والربلة ايضا كل لحمة غليظة ، او هي باطن الفخذ . وامراة ربلة وربلاء اي عظيمة الربلات

البوابات من مكان ما ، ونخير الخنوص[٧] المضجر المسئم في حظيرة امرىء ما ، وحتى خفقان جزمته العتيقة على الطريق الأحرش الوعر ، كل هذه الاصوات المألوفة ، التي لم تكن في السابق ملحوظة ـ كما الهواء ـ تقريباً صارت الآن تبعث في نفسه الفرح بما يعجز عنه الوصف راح ينظر بعينين جديدتين الى الاشجار والاسوار ، الى البهائم والأطيار ، الى المنازل والاجواء ، والى الارض والسماء ... كل شيء كان موجوداً في السابق ، وكلّ كان مغايراً تماماً كل كان يزقزق ، يشقشق ؛ يحف ؛ يخشخش ؛ يصدح ، يغرد .. لقد ولى ، الى غير رجعة ، كل الفراغ الاخرس الصامت

وامتنانا لما حدث في داخله ، معه ، وفي ما يحيط به من عالم رنان ، اراد اوستين ، من فرط المتعة النامية في نفسه ومن فرط السعادة التي غمرت قلبه ، اراد الان ، في هذه اللحظة بالذات ـ دون ان يفقد اية دقيقة من وقته ـ ان يندمج بهذه الحياة ، ان يتوحد معها لقد أحس إحساساً حاداً بأن الاصوات المتبجسة المتدفقة من كل مكان قد غمرت جسمه المختلج المبتهج كله ، فصار رخيماً مثل اغنية مجنحة جميلة الايقاع

شرع يهمهم ، يهتف مخرجاً بعض الاصوات ، ثم اذا به يغني فجأة بصوت اخرق متثاقل

أ ... آه ، استقـ ... بلتْ أمْ ... مُ وليـ ... دها ... بدا لسانه متثاقلاً متعثراً ، كانت الكلمات تتشكل بعسر ، بدون انصياع ، فأدرك اوستين

---

٧ ـ نخير الخنوص : الخنوص : ولد الخنزير . والجمع خنانيص ونخر ينخر اي مدّ الصوت في خياشيمه

ان عليه ان يتعلم النطق من جديد . وحين مر بمحاذاة دار والده ، مال نحو الباب الخشبية المألوفة

كان الوالد العجوز يشتغل بدون كلال في أحواض الخضار الصغيرة الخالية من الزرع ، جارفاً ومكوماً اوراق البطاطس اقترب منه اوستين من الخلف ، احاطه بذراعيه ، وبعد ان دارا معاً بعض الوقت أجلسه فوق عرمة أوراق البطاطس

إيه ، أوستين ، مابك ؟ هل فقدت عقلك بالمرة ؟! خلّ عني سوف تأخذني الدوخة ... دع المزاح والرعونة للاخرين ، فهما لا يليقان بك ان بليتنا فادحة ، ـ كان كوزما دانيلوفيتش يرسل صيحاته وهو يتملص ، متخلصاً من يدي ولده القويتين المرحتين . ـ ها ، قل لي كيف حال پاقليك ، أفضل ؟

وقف اوستين قبالة والده وراح ينظر في وجهه بعينين تبدوان مشدوهتين تقريباً ، دون ان ينتبه الى يديه الملوحتين المستفسرتين عن أمر ما . صارت الاشارات الان من الامور الفائضة . لقد سمع الصوت الحبيب ، صوت والده الخافت المصحوب ببحاح الشيخوخة المتهدج إلا انه ، وهو في غمرة السعادة ، فكر فجأة بمرارة في تلك الاحاديث الصامتة الكثيرة التي كان والده ، شأنه الآن بالذات ، يلوح بها بيديه ويحركها بين شفتيه . «كان في كل مرة يثرثر معي وكأنه يحادث شخصاً مساوياً ، مثيلاً ، مع انه كان يعلم انني لا اسمعه . ان كثيراً من الكلمات التي وجهها الوالد إليّ كانت تطرقني ـ كما تطرق الجدار الحجري ـ لترتد دونما جواب ...»

ـ طيب ، ما دمت مرحاً ومنتعشاً يعني أن الهم قد انفرج ... ـ نهض

كوزما دانيلوفيتش ، نفض عن نفسه شيئا ما ، ثم راح يدنو من الممر الداخلي ، صارخا في الباب المفتوحة - أي ڤارڤارا ، مدي السماط ، أوستين عندنا ! أجل ، يابني ... نسكن غير بعيدين عن بعضنا ولا نتزاور إلا لماماً . لكن مهما يكن فعليك ان تأتي فيرى كل منا الاخر . إن ذلك سوف يخفف عني - أنا الرجل العجوز - كثيراً انني اعيش وحيداً ، ماذا أقول لك اكثر من هذا ؟! أما ڤارڤارا فهي تعيش هنا لتتعهد الامور المنزلية . حسنا ، والان هيا بنا لتطعم من حساءتا الكرنبي

- لا ... أنا الى بيـ ... ـتنا أريد ، - قال أوستين ذلك متلجلجا

ارتعش كوزما دانيلوڤيتش وحملق باضطراب في وجه ولده

- ياالهي ، أتراني أخطأت في السمع ؟ ... يشبه ان شخصا ما كان يتكلم الآن

- أنا تـ ... ـتكلمت ياأبي ، - تحدث اوستين بصوت أعلى ثم تحرك يخطو نحو والده

تراجع كوزما دانيلوڤيتش الى الوراء وهو يطرف بعينيه مرتعبا ، ثم جلس كالمصعوق على الجزْن القـ يم ، قرب السياج ذي الاغصان المجدولة

- بُني ، ولكن كيف ؟ أحقا انك تسمعني ، ها ؟ أوستينوشكا ، ها اننا قد عشنا وسمعنا ! أه ، ياإلهي ! .. كلا ، لم تـذهب صلواتي ودعواتي ادراج الرياح . ولكن هيا اجلس لنتحـ دث ، يابني ، تعـال خبرني .. هيا ، عن كل شيء . كيف عاد اليك د موتك ؟ - انتابت كوزما دانيلوڤيتش ، من فرط التهيج والاضطراب نوبة من النهجان وضيق النفس ، وتلبدت بالدموع عيناه الرماديتان الكابيتان .- هيا قل كلمة ما

أخرى ، يابني !.. لا تصمت ، كلمني ، تحدث معي ! .. لقد سمعتُ ، يحدث مثل هذا ،هيا،بنا نذهب الى داخل الدار ، ولكن لماذا جلست انا ؟! مثل هذا الحدث يستحق الآن أنْ

قام كوزما دانيلوفيتش من فوق الجرن الخشبي ، الصق رأسه الاشيب الحاسر بصدر ابنه وتسمر ساكنا في مكانه

مرحبا ، دانيليتش ! الجريدة وضعتها لك في مكانها ، ـ طرق السمع صوت فتاةٍ ذو مرح متكلف ، وعلى السياج كان يلوح للانظار ، بين حين وآخر ، منديل ساعية البريد تانكا ڤاسينينا ، عائماً بتموجات لونه الأحمر

تطلع كوزما دانيلوفيتش باهتمام وتجهم الى ناحيتها

- تحمل الاحزان والبلايا الى البيوت .. انني اخافها . صرت انفر من منظرها منذ ذلك اليوم الذي حملت فيه الينا نبأ استشهاد اندري . ما ان تظهر تانكا سائرة في مواجهتي حتى اذهب باحثاً عن ركن ما التجىء اليه . ـ تنحى عن اوستين جانبا وراح يتلفت ، متوجساً ، حول مختلف الجهات . ـ ألم تسترق السمع الينا ، يااوستين ؟ هل كانت هنا عند الباب منذ زمن طويل ؟ ـ فجأة شعر العجوز بالقلق

- لـ لا أدري ، ـ اجاب اوستين ، غير مدرك سبب هـذا التحول الذي طرأ على والده

اخذ كوزما دانيلوفيتش يتمشى في باحة المنزل ، متلفتا وراءه وكأنه يحاول ان يجد مكانا يختبىء فيه . وقف قليلاً يتفكر ، ثم دنا من صندوق البريد الذي كان معلقاً في الجهة الداخلية من البوابة ، انتشل منه الصحيفة وعاد ادراجه الى اوستين

- لا استطيع ان ارى الحروف بدون نظارات . وانت ، ألم تفقد القدرة على القراءة ؟ هاك اقرأ . كيف تسير الامور هنـاك ؟ .. ـ قدم كـوزما دانيلوڤيتش الجريدة الى ولده فقلبها هذا نحوا من دقيقتين في يديه ، مارا عليها بعينيه

- يـ ... يتأهبون لـ ... لفصل الشتاء .... ـ ردّ أوستين

لا ، لا . ابحث لي عن اخبار الجبهة . ماذا هناك ؟

- ولكن ، لـ ... لا شيء إليك ما كـ ... كتب ... «على جـ ... جبهات القتال لم تـ ... تحدث تـ .. تغييرات مـ ... ملموسة ، تـ . تدور مـ ... معارك ذ ذات أهمية مـ ... محلية»

- اين الالمان الان ، واين جماعتنا ؟ ـ قاطع كوزما دانيلوڤيتش ولده في لهفة ونفاذ صبر

- لم يـ .. يكتبوا هنا عـ ... عن هذا

- لكنني اعرف . بصري ضعيف ، غير انه يوجد ـ والحمد لله ! ـ في الدار راديو . فاسمع ما اريد أن اقوله لك ، يابني ! .. لم يبق لقتالنا مع الالمان إلا القليل من الزمن

نظر كوزما دانيلوڤيتش ، متلصصا ، نظرة ارتياب الى باب الدار ، قبض على مرفق ولده وقاده الى الركن القصي من باحة المنزل حيث حفظت تحت السقيفة اكوام من الدمن المجفف على شكل قوالب لغرض الدفئة اثناء فصل الشتاء . جلسا صامتين فوق كتلة من مفرش خشبي

- انني في غاية السعادة من أجلك ، يابني ، لدرجة الارتعاش بكياني كله . انك الان تبدو وكأنْ قد اتيت من جديد الى هذا الكون ، ـ واصل كوزما دانيلوڤيتش كلامه بحرارة وتأثر . ـ أنت الآن ولدي الوحيد ،

أجل الوحيد الذي لدي في هذه الدنيا ... وانني لا أريد أن افقدك ، لا اريدك ان تضيع مني ، لن يبقى لي بعدئذ احد ... وفي الحرب لن يُدّخر الناس ، انها تلتهم الجميع انظر ، لقد اجترفت القرية اجترافاً ، شطفتها تماماً ؛ شبان كليوچوفكا جميعهم هناك . وقد بكينا الكثيرين منهم ، لحدناهم دون ان نراهم . وانني لن ادفع بك اليها ، لن اسمح لك بالرحيل ! لا اريد ... كفاها ، هذه الهوة الخرقاء ، هذا المزرد البشع النهم الذي لا يشبع أجل ، كفاها مصرع شقيقك أندريوشا انه راقد تحت التراب . وسترقد انت ايضاً ، يابني اذا رحلت . هيا بنا الآن نتناول لقمة من الطعام ما دامت الفرحة قائمة وستمسك عن الكلام الى حين . نعم لا ينبغي لك الاعلان في الوقت الحاضر عن انك سليم معافى ، سيرحلونك فوراً الى هناك ، الى المكان الذي قدمت منه . لا مجال الآن للثرثرة والمناقشة والجدال ... يتفقدونك : ان وجودك سليما فاقرأ السلام ! .. لا ، لا اريد ! .. لن اسمح !

نشج كوزما دانيلوفيتش ، وضع طية صدر سترته على عينيه المخضلتين بالدموع . لكن اوستين لم يبد عليه انه قد فهم بعد مقصد والده تماما . جلس متخشباً باهتاً ، محدقاً امامه في الفراغ ، في لا مكان

ـ هكذا اذن ؟ .. جـ .. جئت لكي أ أ أفرحك ، ولكن .. قال اوستين ذلك متنهداً

ـ أنت قدّمت يابني ، عطاءك ، قاتلت بما فيه الكفاية . وأنا عدت من الحرب الاهلية مصاباً بجرحين . شقيقك اندري يرقد عظاماً في ضواحي موسكو . خلاص ! كفانا ، نحن آل ديدوشيف ! لقد وهبنا الحرب ما

علينا من ضريبة دم دع الاخرين كذلك .. ما ان توقف كوزما دانيلوفيتش عن النشيج حتى بـدأ فجأة يصرخ باكياً بكاء عنيفاً مريراً

ـ أنا ذ .. ذاهب الى البيت . أ .. أفرح فروسيا في الأقل ،ـ تكلم اوستين ثم نهض واقفاً

ـ هل جننت ! شدّ كوزما دانيلوفيتش ، بغتة ، عـلى سروال احدى ساقي ولده ـ أم عاد اليك الصمم ثانية ؟ ألا تسمعني ؟ «يفرح فروسيا» هي بحاجة اليك حياً ترزق ! ومن اجل هذا عليك ان تعض على لسانك ارجوك ، التمس منك ، بحق المسيح ، ياأوستين ! ليس سوى البليـد الاحمق من يشي بنفسه عن نفسه

ـ يعني ان لا اخبر حـ .. حتى ز .. زوجتي !؟

ـ افشِ سرك للدجاجة فتنشره بكل لجاجة ! اليوم تعلم الاسرة دون غيرها ، وغداً القرية بأسرها .. أما أنت فما عليك الا أن تنتظر أقل من شهر .. انك الكن ، تعتاع ! أية جدوى تجنيه الجبهة منك وانت على هذه الحال ؟!

ـ عـ .. عبثاً تـ .. تخوفك ياأبي . لن يـ .. يحدث لي اي شيء

وثب كوزما دانيلوفيتش من جزلة الخشب ، وقف قبالـة اوستين ، وضع يديه على كتفيه ، كأنما يهدئه ويثبطه

ـ ان المزرعة التعاونية أحوج اليك الان ، ورشة الحدادة قائمة على عاتقيك ، مصيرها كله متعلق بك . حارب هنا بالملاطيس والمطـارق وأمسك لسانك الان مربوطاً بمقود !

ـ فـ .. فروسيا .. كـ .. كلمة واحدة اريد ان اقولها لها ، بدأ أوستين

يحتج

ـ من صبر ظفر ! والرغبة دواؤها الأناة والجلد ! ـ بقساوة مصحوبة بتلك الصرامة الأبوية القديمة ، المألوفة من سالف العهد قاطع كوزما دانيلوفيتش كلام ولده ـ المهم هو القليل من الانتظار . اذا حكمنا الأمر ، ناقشناه ... فانك لست واحداً من اولئك الذين هربوا من الجندية ، لست فارّاً أبقاً او شخصاً عاصياً متمرداً .. لست من اولئك الذين يتسكعون متوارين في الغابات أو ممن يختبئون في الأقبية والعُلّيّات .. انك هنا في وسط الناس ، امام أنظارهم بهيّ عملك ، نفيسة صنعتك ان فاسينين ـ اسمع ـ لعظيم المسرة بك ، كثير الامتنان منك . فلتعش اذن . ولا تحدق بي هكذا لا ابتغي لك سوى الخير ! نعم !

أحبطت كلمات الوالد الفرحة المتوقدة في قلب اوستين فراح يقاوم هذا التغير الفجائي المؤلم القاسي ..لم يتسن له ان يتفهم ، بل انه احس فقط ـ في استياء وحيرة ـ اتجاها ما ، منقلباً غادراً في سير الامور وتطورها : لقد عجل في المجيء الى بيت الوالدين لكي يسعد أباه ، لكنه كدره واقلقه ، اشغل باله ليس إلا ، اراد أن يفرح اسرته ، غير ان مثل هذا العمل يبدو مستحيلاً تماماً ، بل وخطيراً ! فأية فرحة ، اية سعادة هذه اذن ، ما دام محظوراً عليه ان يشاطر حتى اقرب المقربين اليه ؟

ـ هـ ..هراء ما تـ ..تقوله ، ياأبي . أنا لم اكن من الجبناء . هـ هناك . قـ .. قاتلت بشرف الوجدان ، بما يـ .. يمليه عـ.. علي ضميري ، كـ .كرمت بنوطين ..والان كـ ..كأنما عـ ..عليّ ان اتكتم عـ ..عن أطفالي الاحباء ، ان العب لعبة الصمت ..مع الناس ، صـ

صحيح ؟ ان افرض عـ .. على نـ ..نفسي و.. مثل هذه العبودية ؟!
لا ، ابداً ! هـ .. هذا مـالن استطيع فـ فعلـه .. مـ مطلقاًتكلم
اوستين بتأثر وانزعاج ، بارتباك وتشوش ، بمشقة وجهد .. مشيحـاً
بوجهه قليلاً عن والده
هو الان يشعر بالندم ان قد عرج في طريقه من الورشة عـلى بيت
والديه . فلو كان تجاوز هذا الحديث مع ابيه لتم ، على الارجح ، كل ما
هو آت بسهولة وبساطـة ومسرة أما الان فـان الفرحـة قد امست
مجعدة ، مدعـوكة من اصلهـا تمامـاً .. تلبدت نفس اوستـين ببلبلة
مضنية ، فألقى نظرة عتاب على والده الذي كان منكمشـاً ، منقبض
النفس من كلمات ابنه الاخيرة . وشعر اوستين فجأة بالحزن والاسى على
العجوز
- لماذا تـ تنوح وتتحسر سلفاً ؟ تكلم اوستين بلهجة اكثر ليناً -
لماذا يـ .. يجب ان ارحل الى الجبهة ؟ انا مـ .. مسرح من الخدمة
حملت هـذه العبـارات الى كـوزمـا دانيلـوفيتش بعض العـزاء
والسلوان ، بشرته بالامل : ليس اوستين على هذا المستوى من العقوق
البليد بحيث يركل نصيحة والده ، ضارباً عنها عرضاً
-ما الذي سأناله انا ؟ بقي لي من الحياة قدر ذراع . انني اكترث من
اجلك يابني ، من الافضل لك ان تصغي الي والا فسوف يكون الوقت
متأخراً جداً - اخذ العجوز يتكلم ، متضرعاً ومتوعداً في آن معاً وهو ينظر
بيأس شجي في عيني ولده - ان عوقك هذا كان من الممكن ان يزول عنك لا
في هذا اليوم ، بل لنقل في آن اخر . بالنسبة لك ولي ان صممك الابكم
اللعين قد انتهى - والحمد لله ! - الان . اما بالنسبة للناس فدعه ينتهي

في وقت اخر ، آجل .. من سيعلم بهذا الامر سوانا.، نحن الاثنين . خذ بالك من نفسك يا اوستينوشكا . من اجـلي ومن اجل طفليـك . ثم ان فروسيا ـ كما تعلم ـ على وشك ان تضع مولودها الثالث فلننتظر اذن او ان يجيء طفلك الجديد . تطلع اليه !

وقف اوستين امام والده متجهماً عابساً ، في تبلدٍ خامل ، ساعيـاً جهده الى ان يلم اطراف افكاره فيوطد عزمه على شيء ما . وهذا الامر كان يتطلب كما بدا له ، ان يخلو الى نفسه . ان ينصرف بأسرع ما يمكن عن والده اما كوزما دانيلوفيتش الذي حزر تماماً قصد ولده ، فانه شرع يبتسم له في حنان ولطف .. ثم مسكه من كمه

ـ فلنمض يا اوستين . سنتناول الان حساء الكرنب الساخن قبل ان يلج كوزما دانيلوفيتش في داخل ممر الدار ، وضع اصبعه المعقوف قليلاً على شفتيه وهتف هامساً وفي مقلتيه بصيص ضياء متوسل توسلاً مؤلماً لكنه محذر تحذيراً صارماً

ـ لا تهلك نفسك يابني

ـ ٩ ـ

أتما تناول طعام الغداء صامتين   اغترف اوستين بلا شهية من صحن حساء الكرنب الساخن ثم قام ، تاركاً المائدة مع سابق رغبته الحالكة في ان يذهب الى مكان ما ويخلو الى نفسه . كان يختلج في صدره نوع من الاحساس كما لو انهم يحشرونه في مبنى ارتفاعه اوطأ من قامته ، مما يستحيل عليه ان يستوي قائماً ؛ لان في ذلك خطراً جسيماً حدّ الهلاك . وكان من العسير عليه ان يدرك ، يقر بأن هذا الاكراه والقسر اللطيفين الرقيقين المفعمين بالدموع ، قد صدرا حقاً من والده الحبيب الذي يرجو له ـ لابنه ـ الخير والسلامة والهناء   انه لطف ماكر مخادع كالفخ ، وهو ليس مقبولاً ولا صالحاً بالنسبة اليه ، على الرغم مما يبدو فيه من حجج متزعزعة بعيدة المرمى

بهذه الافكار والخواطر خرج اوستين الى الممر الداخلي للدار وتفاهم بالحركات الايمائية مغ ڤارڤارا ، المرأة العانس الضخمة الجسم ، ذات الخمسين عاماً ، التي بقيت هكذا دون ان يرمي لها القدر بالقرين المبتغى . كان اوستين يخص عمته دائماً بمعاملة تتسم بالاحترام الشجي الاسي . وكان كلما التقاها شجعها قائلاً   «انك ، ياعمتي ڤار ، تزدادين كل يوم شباباً !» وكانت العمة تجيبه في كل مرة ـ على كلمات المجاملة والاطراء الثابتة هذه ، تجيبه بحزن ضحوك   «من أين ! ها

انذا اتفرق شباباً !»

مدّ اوستين نظرة عطف ودية طويلة الى وجه ڤارڤارا الاسمر الشائخ ذي الانتفاخات الشحمية ، الذي كان ، مع ذلك ، وجهاً لطيفاً وديعاً عزيزاً .. ثم ربت برفق على كتفها المستديرة . وكادت تفلتـه كالمعتاد من شفتيه تلك العبارة المشجعة المنشطة اللعوب

– نعم ، نعم ، اوستين . لقد عدت شابة أنا ، عدت شابة ، وها انذا ازداد ، أتفرق شباباً بالمرة ! ـ قالت ڤارڤارا وكأنها قرأت في عينيه افكاره فهدأت بكلماتها الخافتة هذه ما كان يعتمل في نفس اوستين من رغبة ملحة في ان يتكلم ، ان يفرح عمته بصوته الذي انبعث من جديد

وحين لاحظ كوزما دانيلوڤيتش كيف وقف اوستين يتململ متردداً قرب ڤارڤارا ، مسك به على عجل من كوعه ، قائلاً

ـ انفكي عنه ياڤارڤارا ، لا تعيقيه ! ان ورشته بقيت مفتوحة

وحين خرجا وراء الباب معاً ، قال له بصوت خافت

ـ حسناً ، فلتذهب الان ، يابني . ولا تنس ما اتفقنا عليه الزم الصمت . وبعد ذلك سيأخذ كل شيء مجراه من تلقاء ذاته .. واذا اشتقت الى الحديث ، اذا رغبت في ان تلعب لسانك فتعالِ الى هنا ان بيتنا ـ انظر ـ قلعة الابواب ودفات الشبابيك مضببة كلها ، محكمة الغلق بالترابيس ، وان شئت فغن باعلى صوتك ، من يسمعك ؟ لكن ڤارڤارا هذه احذرها ! ..فهي امرأة كتوم ، مكارة ، جسور .. ذات يوم من ايام الصيف الفائت توقف ها هنا سائقون عسكريون . كانوا مارين عابرين .. فانهمكت ، منذ الوهلة الاولى ، مع واحد منهم ، اجعد الشعر .. وبعد هذا صار يتردد اليها ، من حين لاخر ، رجل يعمل في

الطاحونة . حسنا ، ما علينا ان ذلك ، بطبيعة الحال ، امر دنيـوي حياتي معتاد : فالبقرة الهلوك تحب الثور !.. الا انني لست في هذا الصدد .. هل تعلم ماذا تريد ڤارڤارا هذه ؟ انها تترقب اوان موتي لكي تستقـر في الدار مـالكه !.. بعـد مصرع اندري بـوقت قصـير راحت تحدثني

مادمت ، يعني ، في صحة وعافية فاكتب لي الدار باسمي لكي استطيع فيما اذا حدث شيء ، ان اسكن فيها بطريقة قانونية مشروعة وشريفة يالها ، الى اين تسعى .؟! لم تشيد لم تنضح عرقاً ، تدحرجت الى هنا صعلوكة رثة عزباء ، لا تملك شروى نقير ، جاءت من بطاطس ارزاماس الى اراضينا الغنية بالقمح . ولم يكفها! انها تعيش في ركن دافيء مريح . بكل ما توافر فيه من زرع وضرع .. اجل لم يكفها والان ، اكتب لها ، هي الضخمة الكرش ، المنزل كله باسمها ، القصر هذا المشيد بأجود انواع الخشب ... لقد وضحت لها عندئذ كل شيء ففيء ونام كأخ لاخته . قلت لها ان لي ما عدا ولدي الشهيد اندري ، ثمة ابناً آخر غالياً حبيباً .. هو حي معافى ، لكنه الان في الجبهة انه ولدنا اوستين كوزميتش . زفرت متبرمة ، ثم اذا بها تقول آه ، انهم الان قليلون ، اولئك الذين يعودون احياء من هناك .. هذا صحيح ، انني متفق معـك ، ولكن يجب ـ مع ذلك ـ ان ننتظر ، فلعل ولدنا اوستينوشكا يساعده الحظ .. واذا بك ، ابن الحلال انت ، سرعان ما اعلنت عن حضورك . ومنـذ ذلك اليـوم صارت ڤارڤارا ، واقولها صريحة ، لا تهتم بأمور البيت الا لماماً وبتوان ، اصبحت لا تساعدني الا مساعدة متراخية بالقياس الى ما كانت عليه سابقاً . ولم يعد يعجبها في البيت شيء . هل فهمت ؟ وحاول الان فقط ان

تفتح فمك ، ان تفوه بكلمة واحدة ستكون ڤارڤارا اول من يبلغ عنك ، يشي بـك . نحن وان كنا قـريبين الى بعضنـا ، ذوي رحم ، غير انـه يستحسن... يفضل التنحي بعيداً عنها ، عن الخطيئة ! ولكن تعـال افهمك كيف ينبغي لنا ان نتدبر .. نظر كوزما دانيلوڤيتش متلفتاً حول نوافذ الدار ثم واصل كلامه بإنفعال واضطراب كمن يبيت امراً او يتآمر سراً نحن سنقلب كل شيء راساً على عقب . انقل عائلتك اليّ .ما الداعي لسكناكم في كوخ من اللبن ، في حين اننا نملك دار سكن ممتازة ، واسعة خالية ! سنعيش معاً في الفة ووئام .. وسوف ابذل جهدي في ان لا اثقل عليكم . اما ڤارڤارا فبما انها امرأة وحيـدة ، فسوف نتنـازل لها عن الكوخ . سيتسع لها المكان هناك . واذا لم يعجبها فلترحل عائدة الى ارزاماس !.. تعال يا اوستين ، دعنا نقرر هكذا ، ما قولك ها ؟ أنا سأجد راحتي ومستقري وانت سيكون لك العيش ها هنا أفضل واسهـل سنحيا جنباً الى جنب ، يدفع كل منا عن الاخر

في الظـل ، عند البـوابة ، من الجهـة المحاذيـة لشجيرات عبـاد الشمس ، كان الجو معتدلاً منعشاً ، مفعماً بالنسيم العليل

- عد الى الداخل ، يا انتي ، قـ ... قبل ان يزكمك تـ ... تيار الهواء ، تكلم اوستين باعياء

- دعك مني ! لا تشغل نفسك بأمري ! ولكن اسمع ما يقال لـك ! وارتفع مرة اخرى صوت كوزما دانيلوڤيتش بصرامته الابوية المعهودة سالفاً . الا انه وقد لاحظ سيمـاء النفور والارتبـاك على وجـه ولده المشغول البال ، سأله بلباقة يصحبها امل وجل هياب في اطاعة الابن اباه ، سأله

ـ الى اين انت ذاهب الان ، الى البيت ؟

سكت اوستين بعض الوقت ، نـاكساً رأسـه غماً وحـزناً كم كـان يشتهي ، يتحرق شوقاً لان يندفع الان الى البيت ، الى زوجته وولديه الصغيرين ما كان اسعد كويخه القروي العتيق وهو يفيق جذلان مبتهجاً على رنين صوته الناطق ! قبيل ساعة واحـدة فقط كان يسـير ، يعدو تقريباً ، بقلب يكاد يتجمد فرحاً ، من ورشة الحدادة الى بيوت القرية الى اسرته ، الى الناس ، حاملاً معه اليهم اعجوبة وأية اعجـوبة ! فـاذا بقدميه تتعثران تزلان عند بوابة دار الوالدين

ـ الى الورشة ذ .. ذاهب الان .. اكمل ط .. طرق اسنان المسلفات ـ قال ذلك ، مشفقاً على والده . ثم اضاف ، مستاء من ضعفه الذاتي ، يقول حسناً . اذن .. ما د .. دمت قد تـ .. تغذيت فلا د .. داعي للذهاب الى البيت . سأذهب في المساء

ـ نعم، نعم ، عليك الان ان تذهب الى الورشة. اطرق وفكر جيداً في كل شيء . لا تحرق نفسك غماً ، يابني ! فروسيا سوف يتسنى لك ان تفرحها في ايما وقت تشاء ، انها اكثر حاجة اليك وانت حي ترزق .. تحدث كوزما دانيلوفيتش راضياً مرضياً

استدار اوستين ، دون ان يتم الاستمـاع الى حديث والـده حتى نهايته ، ثم راح يخطو مبتعداً عن ذلك المكان

ـ ١٠ ـ

في الجبهة،كانت له لحظاته ولمحاته : يغمر قلبه فرح صبياني لعوب حينما يفلح في الخروج سالماً غانما غب معركة عنيفة شديدة الوطأة للغاية .كان عندها يبتهج ،يعجب ذهنياً ، في خياله ،كيف انه استطاع ان يحارب هكذا باقدام واقتحام ، ببطولة وبسالة ، بنجاح وتوفيق وانه لم يبق الا ان يواجه العدو بعدد من امثال هذه المعارك الطاحنة المدمرة ليصل الامر الى نهايته ، فتضع الحرب اوزارها ويحل يوم النصر ، يعني سيسمح حينئذ لجميع الجنود بالعودة الى بيوتهم واهليهم .. هكذا كان يمني نفسه

اما الان ، وقد مضت عدة اشهر على وجوده في مأواه ، فهو مكب ايضاً على العمل ، في المزرعة التعاونية ، بجد ودأب حد الاستهلاك وبمقاييس زمن الحرب . غير ان تفكيره في الحرب عرضي ، جانبي نوعاً ما ، خال من تلك الاحاسيس والافكار التي كانت تملأ عليه يومياً حياته في خندق القتال . الان ملك يديه كل ما كان يمكن ان يحمله له النصر في افضل الاحوال عاد الى بيته ، يشتغل ، يربي طفليه بجواره زوجة طيبة لطيفة ان الحرب بالنسبة اليه كانت مهما قلنا ، منتهية لقدانها معوقاً . وهذا الخرس الاصم ، الذي قطع قسراً صلته الاعتيادية بالناس وعلاقته الطبيعية بالعالم ... اعطاه حقاً محزناً

متكدراً لعلاقة ما خاصة ، متوازنة - حد المكابدة والمعاناة - بكل ما يكتنفه ويتصل به . حتى الانباء الواردة من الجبهة كان يستقبلها كما الاطفال والشيوخ الواهنين العاجزين ، يتلقاها بالامل الحتمي في العاقبة الموفقة السعيدة لخطر الحرب واهوالها . اي انه اذا حدثت اية تعقيدات اومضاعفات فليس عليه هوواجب انقاذ الاخرين ، بل ان على الاخرين ان يبادروا ساعين الى انقاذه هو بالذات ، كانسان منكوب ، محروم منبوذ عن كثير من مباهج الدنيا ، وغير اهل لان يدافع في الوقت الراهن عن نفسه

بيد انه قد اكتشف الان لاسيما بعد حديثه مع والده - انتماءه المشروع الى الحرب ، انحيازه كجندي الى المساهمة العسكرية في مثل هذه القضية المقلقة العصيبة والمهمة الخطيرة العنيفة التي كان منشغلاً بها ، في مكان ما ناء بعيد ، جميع الشبان الراشدين الاقوياء والرجال الاصحاء الاشداء من سكان قرية كليوچوفكا . لا ، انه لم يخشَ العودة الى ميدان المعركة . فهوحين استجاب لداعي التعبئة منذ الوهلة الاولى لاعلان نفير الحرب ، لم تخطر بباله عندئذ اية فكرة ، لم يتبادر الى ذهنه ابداً ان الحرب يمكن ان تضر به ، ان تفنيه ، هو ابن الثلاثين عاماً هكذا في عنفوان ازدهار سني الرجولة ! لا سيكون ذلك سوء تدبير لمصير قاس عسوف ، لا يدرك كنهه . لا ، انه يجب ان يكون مصوناً بخالص ما في حوزتها من حرص ربوي !.. كان يؤمن ويثق بانصافها وعطفها اللذين يكادان يكونان خارقين للعادة في تعاملهما معه شخصياً هو الانسان الوديع البسيط ، المولع بالعديد من الحرف والاعمال ، الذي عاش ويعيش على هذه الارض دون ان يضمر لاحد شراً او ضغينة

وبقي مؤمناً بذلك حتى باغته ذلك الانفجار المهلك الرهيب الذي تركه اصم ابكم . غير ان ما يرعبه ـ حتى في الوقت الراهن ايضاً ـ هو ليس الحرب ذاتها بما فيها من معارك وحملات عسكرية ، بل الحرب بضراوتها الطائشة العمياء ، ببلادتها الوحشية الشعواء : كل جندي ، في ايتما لحظة ، يمكن ان يكون ممحياً من الوجود غدراً وبلا سبب ، ومدعوصاً كغالية[8]

«ان المزرعة التعاونية احوج اليك الان ، ورشة الحدادة قائمة على عاتقيك ، مصيرها كله متعلق بك» تذكر اوستين كلمات والده ، وكان من المستحيل الان عدم التسليم بها أجل ان پانكرات سيميونوفيتش امسى ضعيفاً واهناً للغاية . ليست الشيخوخة مَسَرَّة .. ثم أتراها كافية هذه المؤمن والجرايات التي تقدم الى القين في ايامنا هذه ؟ وأطفىء الكور الآن ياأوستين فتعيش متسولة مستعطية ـ بدون قينها ـ كليوچوفكا ، وبيد ممدودة الى الجيران سيرحل مدير مزرعتها التعاونية !..ليس ثمة من بدائل اخرى ، بطبيعة الحال . من الممكن ان يرسلوا الى پانكرات سيميونوفيتش امرأة ما او غلاماً ما ، كطراقة او طراق ، لكن هذا معناه ان ورشة الحدادة كلها ستقع على عاتقي العجوز العليل . اما هو ، اوستين ، فيطرق بالملطاس من الفجر الى الفجر دون ان يبلع ريقاً او يسحب نفساً ! انه مستعد لان يستهلك ذاته ، كيانه جميعه حتى نهاية الحرب ، لصالح القضية ثم ان الناس ليسوا كلهم الان في جبهات القتال ، ثمة من يملك امتيازات معينة او حقوقاً مضمونة ، وثمة من هم في مؤخرة الجبهة ، قرب اماكن اعمالهم ، ممن

---

٨ ـ الغالية : حشرة صغيرة كالخنفساء

هم اكثر خطرا واشد وقعاً على العدو . وهل تراه سيرتكب مخالفة كبيرة اذا ما تدبر بنفسه دون ملاينة او مياسرة او منفعة ذاتية اذا وضع نفسه في موضع تجري منه للناس فائدة عظمى ؟ ويضاف الى ذلك انه ليس فاراً من الجيش ، ليس بهارب من الخدمة العسكرية ، ولا حاجة به الى ان يتوارى ابداً عن اعين الناس . اما الاعمال فما اوفرها ! بهذه الافكار والخواطر المضطربة دخل اوستين ورشة الحدادة ، دفع الى الفرن بعض الفحم ، حرك الكير بحيوية ، نافخاً الجمر حدّ الاشتعال . وبعد انتظار قصير نثر في الوطيس النافث لهباً عدداً من القضبان الحديدية المعدة ، وحين بدأ لونها يتورد راح يمطل منها اسناناً للمسالف اخذ يتساقط ـ بفعل الضربات ـ من المعدن المطروق خبث رمادي اللون ، واومضت متطايرة شرارات ناعمة جداً . ظل اوستين يهوي ويهوي بمطرقته نحواً من ساعة ونصف الساعة ، دونما توقف او راحة . كان العرق يقطر من ارنبة انفه ، وراح ملح كاو ينزو متسرباً الى عينيه اخيراً توقف عن الطرق ثم خطا ، وهو يتهادى مترنحاً نحو المصطبة ودس يده في جيب سرواله مستلاً منه الماخوركا[9]

ـ اذن .. تكلم بصوت اجش مبحوح بعض الشيء مصحوب بنوع من الاستدعاء والتحدي كأنه يسأل شخصاً ما عن نفسه ثم اجاب هو نفسه متأملاًمع بعض الاقتناع والارتياح «أستطيع!.. فحتى في الجبهة لا يتفق لكل واحد ان ينضح عرقاً هكذا

بعد ان اشعل لفافة التبغ ، خرج من الورشة الى مهب النسيم ،

---

٩ ـ الماخوركا : التبغ المفروم

جلس فوق قرمة[10] مربط الخيل ، واذا بوجهه يتحول تلقائياً نحـو بيوت القرية . وراحت مقلتاه تبحثان فعثرتا فوراً على دار والده . كانت الدار هذه هي الثروة الرئيسية التي وفرها كوزما دانيلـوفيتش على المـدى الطويل لسني كدحه الفلاحي . لقد شيدت من خشب الصنوبر الذي ابتيع في بشكيريا ، وسقف بالصفيح الحديث الـذي كلف ثمنه غـالياً بغض النظر عن ان الحصول عليه قد تم بوساطة من المزرعة التعاونية وقد ساعد الشقيقان اندري واوستين والدهما في البناء ، على الرغم من انهما لم يتمكنا من ان يدركا جلياً الدافع الذي حدا به الى تشييد مثل هذه الدار السكنية

في يوم حفلة التبرك بالمسكن الجديد ، راح كوزما دانيلوفيتش وهو يضرب الارضية الخشبية الحديثة الطلاء بقدميه ويشكر الجميع على مساعدتهم ، راح يتحدث ويتحدث حتى صار واضحاً للحـاضرين جميعاً انه لم تكن له اية نوايا مسبقة في ان تكون الدار له وحده عاش دائماً مع امنية بسيطة هي ان يترك بعده هذا البيت كمبرر واثـر لمن بعده . فعلى الرغم من انه كان يملك يدين عاملتين حاذقتين ، لكنه ظل طوال حياته تقريباً يسكن في ابنية خشبية مكتظة وبيوت طينية مختلفة ولم يكن ذلك بسبب من كسل او اهمال ، بل لان الفاقة والضنك كانا يجثمـان كالنـير على عنقـه . ولكن ما ان تنفست المـزرعة التعـاونية الصعداء ، بمجرد ان توافرت الغلال والاموال حتى بدأ ، هوكـوزما دانيلوفيتش ، يعلن ، رغم كبر سنه ، عن مؤهلات متفتحـة متجلية !

---

١٠ ـ القرمة : الجذع المهذب من الشجرة

فبيديه الاثنتين ، وعلى مرأى من القرية كلها ، اقام هيكل بناء على درجة من المتانة بحيث يمكن للناس ان يعيشوا فيه مئة عام او تزيد ! من يقطنه ؟ الجميع طبعاً الابناء والاحفاد . غير ان الدار لم يقطنها على مدى خمس سنوات ، اي قبل بدء الحرب تماماً سوى كوزما دانيلوفيتش مع زوجهِ العجوز لوحدهما . ولم يكن فيها رب بيت بالمعنى ، بل حارساً اجيراً وشغيلاً لا يقر له قرار ولا يهدأ بال ، شغله الشاغل ان يكشط ويثبت في هذا المكان من المسكن ، وان يزخرف ويزين في ذاك المكان منه . بل انه نادراً ما كان يدخل الغرفة الرئيسية للدار ؛ عاش في غرفة المدخل الدافئة الفسيحة ، حيث كان يقاسم قرينته العجوز المأكل والمأوى .. وكان الولدان الشقيقان يزوران والديهما بين حين واخر يمتعان النظر ، بدون تحفظ ، بالدار التي كان لهما قسط من الجهد في تشييدها . الا انهما لم يبديا للوالد يوماً اية ادعاءات حتى وهما في نشوة السكر اولاً ، ان كلاً منهما كان يعيش في غنى او في عوز - في بيته القروي الخاص به ؛ وثانياً ، ان الوالدين لم يساورهما شك في ان الدار ستؤول ، عاجلاً ام اجلاً ، اليهما تلقائياً . وهل ثمة من احد سواهما ؟ ولو خطر للوالد حينئذ ان يدعوهما اليه للعيش معاً في داره لما سعيا راكضين اليه حالاً ؛ لان الحرية والاستقلال عندهما الذ واحلى من كل شيء

لقد غيرت الحرب اشياء كثيرة في حياة كوزما دانيلوفيتش ، خطفت منه ابنه البكر الذي أتى مصرعه على البقية الباقية من حياة زوجته العجوز العليلة . وبعد ان وارى قرينته التراب ، هرم في الحال وصار يتبرم ببيته الجديد وبمزرعته وبالحياة نفسها

نظر اوستين الى دار والديه الحسناء وراح يفكر فيها وفي نفسه ، لا من وجهة نظره هو ، بل بافكار ابيه . كانت الافكار هذه اكثر ملاءمة من افكاره الخاصة . وقد تذكر ، مع توجس والده وارتيابه ، العمة ڤارڤارا على الرغم من انها لم تظهر تجاهه اي مقصد سوء على الاطلاق . لكنها الان تهدده ، تنذره بالخطر من غير قصد ، وذلك بمنافستها اياه على البقاء في المسكن ، وبكونها تملك فرصة أوفر لكسب القضية والاستقرار في الدار كمالكة ، فيما اذا عاد اوستين الى الجبهة ثانية

«لم تشيد ، لم تنضح عرقاً ، تدحرجت الى هنا صعلوكة رثة ...» ـ تذكر اوستين كلمات والده ، وبدت له منصفة تماماً . «ولكن ، كم نضح الوالد عرقاً ، والفقيد اندري ، وأنا !...» ـ وكانت هذه اول مرة ينظر فيها اوستين الى داروالده نظرة محدّقة مدققة ، غير مألوفة الى حد ما ، كما لو انه كان يهدّف مصوباً نحوها !

-١١-

لم يلاحظ كيف جاءت الى الورشة نيورا كوريوشينا ، جارتهم الارملة ، جالبة نبوت الدلاء لاصلاحه ، فقد انحك كلاّبه الايسر وانفصل ساقطاً

- هيا ، اوستين ، اغثني !.. فمن دون النبوت والبعل اشعر وكأنني بدون يدين ! صاحت به ملوحة بيديها ، وهي تضحك بصوت عال جداً كما لو كان ذلك عبر جدول ماء

وتأكد لأوستين في اكثر من مرة خلال هذا اليوم ان الناس حين كانوا يلتقون به لم يتعاملوا معه بالاشارات والايماءات فحسب ، بل وبالكلمات ايضاً ، على الرغم من علمهم انه لا يسمع لكنهم كانوا وكأنهم لم يصدقوا ذلك ، يصرخون به عالياً هكذا ، .. على امل ان يخترقوا صممه اللعين ، ان ينتهروه بهتافهم المستمر ، لكي يجلبوا اهتمام صاحبه وانتباهه اليهم ما اكثر الكلمات التي لم تطرق سمعه ، لم تحزنه ، لم تفرحه !

انتقى اوستين قطعة من الحديد سمكها بسمك الخنصر ، دسها في لهيب النار ، والى حين ان تحمى ، تناول الملطاس وشرع يقوّم سكة محراث معوجة

- رويدك !.. كفاك طرقاً شديداً !.. اذا كانت اذناك قد تقحفتا فاشفق على اذني ! تقدمت نيوركا نحوه ، تشبثت بجرأة - الى حد ما - بيده ثم نظرت في عينيه ، وعلى شفتيها ابتسامة عتاب : وتسمي نفسك جاراً لي ،

يارجل ! لو عرجت مرة على جارتك!زرتها زيارة خاطفة في الاقل ، اعنتها بعض العـون !... ان عارضـة سقف حمامي بـدأت تميـل وتـرتخي ستنهار ، وانت لا تسمح لي بالاستحمام في حمامك .. آه ، اوستين ليتني استطيع ان استعيرك ليلة واحدة ، في الاقل ، من فروسيا ! لتدفأت اذن في احضانك هيا اوستينوشكا ، بشكل ..! إيه ، مالك تحدق بي هكذا ؟ لا تسمعني ؟ جسنن اذن انك لا تسمع والا كنت نظرت بطريقة اخرى ، ربما !... ولكن ، من اين جاءك هذا الدم الذي فوق عنقك ، هناك خلف اذنك ؟ هل خدشتها بقطعـة حديـد ؟ هيا اجلس عـلى المصطبة لكي اضمدك بمنديلي

أخرجت نيوركا منديلها ، رطبته بلعابها وراحت تمرره برفق على رقبة اوستين . وقفت بين ركبتيه ، ضاغطـة عليهما ضغطـاً خفيفاً لطيفـاً بسمّانتَيْ[11] ساقيها اللدنتين الدافئتين

تحير اوستين وتهيب وهو يحس بهذا المس الناعم . لم يسبق له ان لمس نيوركا هكذا عن كثب كما الان . كان يراها كل يـوم ، يلتقيها ـ كجارة ـ بعض الوقت . وقد الف ، كما يبدو ، عينيها الزرقاوين ، الا انه كان في اغلب الاحيان يرسل الى قوامها الفتان نظرات تحمل نوعاً من الاعجاب المبهم الحائر الذي يشوبه شعور بالذنب .. كانت تفصل بين منزليهما بئر ذات شادوف . وسواء كان الطقس مشمساً ام ممطراً ام ذا ريح شمالية قارصة البرد ، كانت نيوركا تجري نحـو البئر ، حـاسرة الرأس ، لا ترتدي غير ثوب بسيط خفيف ، تملأ الدلوين ماء وتدلف عبر الممر الضيق ، تتلولب لدنة مرنة تحت النبوت وكأنها ترقص ، متمايلة في

---

١١ ـ سمانة الساق: بطنها او ربلتها (باطن الفخذ).

مشيتها . تراها هكذا بكامل هيئتها : حسنة القوام ، خفيفة الحركة ، مستديرة ملفوفة ، بيضاء كرأس فجل منظف مغسول !

احتضنت نيوركا ، خفـرة هيابـة ، رأسه بلطف ارتـد اوستين ارتداداً خفيفاً ضعيفاً ، كأن قد لفحته لمسة صدر نيوركا الـذي كان يتنفس تنفساً مضطرباً متقطعاً

ـ في احلامي اراك ، اقبلك ياأوستينوشكا ، وانت تلاطفني بعذوبة وحلاوة .. آه ، ما ألذها من ملاطفة ! ليتني اظل هكذا دون ان افيق من نومي !..اصحو فينتهي الحب اضطجع مرمضة متوتـرة ، ملتهبة المشاعر وسط وسائد عالية محشوة بالزغب . ولكن ، لماذا ؟..ما حاجتي الى الفراش الناعم الوثير ان لم يكن ثمة من رجل يشاركني الرقاد فيه ؟! كانت نيوركا تتحدث بهمس دافىء كانها تكلم نفسها ـ ها انني الارملة بنت السادسة والعشرين ، ماثلة امامك بكل كياني الانثوي .. زوجي قاسيا راقد منذ ثلاث سنوات تحت التـراب ، حفظه اللـه في ملكوتـه وادخله فسيح جناته ! لم يكن ـ قولها ـ لطيفاً جداً معي ولكنه على كـل حال ، بُعيلي . زارني ، تـراءى لي في المنام مـرتين عـابس الوجـه ، مستغرقاً في التفكير . اما الان ، فانني لم اعد اراه في احلامي .. ايه ، لماذا تنظر الي بلامبالاة ، يااوستين . شخت انا ، حقاً .. ولكن ما باليد حيلة ، فالحزن لا يمنح المرء الشباب ـ ان الصدأ يأكل الحديد ، اما الحزن فيأكل القلب .. لا ترمقني بنظراتك هكذا ، فأنا ياأوستينوشكا ، اشعر بالخجل .. آه عيناي تخجلان، اما قلبي فما ابهجه !

في الواقع انه كان من المحرج جداً لاوستين ، بل ومن غير اللائق به ان يجلس معانقاً نيوركا في السديم المعتم للورشة المفتوحة المكشوفة تماماً

لكن الانكى والاشد ايلاماً من كل ذلك هو شعوره بالرياء الاضطراري في سلوكه الشخصي : كشفت نيوركا عن دخيلتها كلها امامه ، واثقة بأنه لا يسمعها . اما هو فقد جلس يصغي ملء اذنيه ونيورا امامه كالعارية تماماً .. لقد رآها ذات مرة ـ صدفة ـ مجردة من ملابسها كان واقفاً خلف الاحراش ، وكانت هي تستحم في البحيرة ولم تنتبه اليه . وهو الان يبدو وكأنه يختلس النظر ويسترق السمع اليها رغم ارادته وبلا وعي منه !

فأحس من ذلك بانحراف في صحته . كما انه شعر بالاسف على نيوركا . لكنه عثر على يديها فكهما عنه وتخلص منهما ثم قام فجأة ، وهو يحس الروائح المنعشة الجذابة المنبعثة من شعرها ويديها ، قام من المصطبة وخطا نحو الفرن

توهجت حتى درجة الحرارة البيضاء ، تلك القطعة المعدنية المستقرة في لهيب الجمر التقطها اوستين بالماقاط ووضعها فوق السندان

حين صار النبوت جاهزاً اخذته نيوركا ، ثم سارت وهي تشكر اوستين بعينيها ، سارت صامتة متثاقلة نحو المنفذ . وبالقرب من الباب التفتت اليه ، انحنت انحناءة خفيفة وقالت

ـ سامحني يااوستين ، لقد ثرثرت كثيراً ... لكنني الهبت النار في قلبي وحسب . فلا تسخط علي : دجاجة جائعة رأت في منامها دخناً ! ولكن ماذا ينتظر مثيلاتنا الان ، ها ؟

فاهت نيوركا بكل هذا بدون اية اشارات او ايماءات تواكب كلامها ، كما لو انها كانت تعرف ان اوستين يسمعها . وقد اثار ذلك انتباهه وحذره .. وانتقل الى كيانه الداخلي ، كما التيار الهوائي البارد ، سيل

من الخوف والشك .. واذا به يتصرف ، اول مرة في حياته تصرفاً مخالفاً طبيعته الحقيقية الواضحة الواثقة بالناس ، فينظر فجأة الى نيوركا الطيبة البسيطة نظرة ارتياب مصحوبة بالانزعاج وبرغبة ما شديدة في الخلاص منها بابعادها سريعاً عن نفسه   ودون ان ينظر (وكم كان يشتهي !) في وجهها المترقب المشوب بمسحة رقيقة من الحزن ، بدأ يهز ، على غير انتظار ، يديه نحوها بفظاظة تصدبها ضغينة مبهمة سخيفة مما يحدث لدى الصم المحتدمين غيظاً.وكانت حركات يديه تصرخ قائلة   «هيا انقلعي ، غوري من هنا ! بعداً لك!»

نظرت نيوركا اليه مرتبكة ، انحسر الاحمرار عن وجنتيها تجمعت متكمشة على نفسها وكأنها مسمرة من اسفل ، ثم راحت تحث الخطى ، معلوة الى خارج العتبة

نظر اوستين الى ظهرها المنحني المتنائي ، جلس في تثاقل على المصطبة ، مستغرباً بأسى من احساسه الحاقد هذا تجاه نيوركا المسكينة البريئة ، ومن ذلك التحول الغامض الذي طرأ على ذاته ، في الانتقال نحو ما هو سيىء بما لم يسبق له مثيل

- ١٢ -

في الاماسي كان اوستين يعود الى البيت منهوكاً ، متعباً حدّ الاغماء تقريباً ، وجهه قد تضمر ، ذبل تماماً ، اغبرَّ فبدا وكأنه مغشى بلون زبد الحديد الرمادي الهامد «لكن قل لي ، بربك ، من ذا يدمر نفسه هكذا ؟!» -

عبرت فروسيا عن تذمرها ، بدافع الشفقة والحرص على زوجها اما اوستين نفسه فلم يكن يتضايق ابداً من وضعه هذا : لقد امتصه العمل كلية ، ولم يترك له الا القليل من الوقت للتأملات ، التي تخدش النفس وتقشط القلب ، في ما يتصل بحياته القائمة الان - بوجه عام - على الجهد المضني المتواصل داخل ورشة الحدادة ، وعلى الرقاد القصير الشبيه بلحظة التدخين الغائبة عن الذاكرة وكان الاعياء الجسدي بالنسبة لاوستين اخف من نوبات الارق التي كانت تنتابه في ليالي السهاد الطويلة . وكلما زاد افراطاً في انهاك نفسه بالعمل احس براحة اعظم وانفراج ارحب في داخله ،وبرغبة اشد في الاستئناس بأولئك الذين كانوا يترددون على الورشة

كان الناس ينقلون اليه نفس الانباء المألوفة ، بالكلمات والاشارات في آن واحد الاشارات له ، والكلمات لانفسهم ؛ كأنهم لم يكونوا يرغبون تماماً في ان يقايضوا نفس هذه الاشارات الغريبة وغير المألوفة في العلاقات الطبيعية ، بتلك الالفاظ البسيطة والمريحة التي الفوها ، لم

يكونوا يسمحون لانفسهم بالهبوط الى مستواه هو «الشخص الاطرش» المنيع الحريز على الاصوات . وكان اوستين ـ وهو يدرك ذلك ـ يحس احساساً اشد توتراً واعمق عذاباً باستحالة التعويض عن النطق الذي هو اروع معجزة واغرب اعجوبة في الانسان . أخذ، وهو ينافح باستمرار ضد عدوه الداخلي الذي لا يلين ،الا وهو الرغبة في الحديث ، أخذ يطبّع نفسه على العيش صامتاً بالمرة غير ان هذه الرغبة كانت ، في بعض الاحيان على درجة من القوة واللاكبح تجعله يبرح الى مكان ما بعيد في اعماق الغابة فيتحدث ـ متلجلجاً تلجلجاً شنيعاً ـ بصوت عال ، مع نفسه اومع الحصان ، ويرفع عقيرته منشداً اغانيه المفضلة التي كانت شائعة قبل الحرب

وكان يجد الطمأنينة والمنفس في علاقته الصامتة بالجد پانكرات صحيح ان پانكرات كان ينطلق احياناً في احاديثه ، الا انه لم يكن يتحدث ، على ما يبدو ، معه ، هو اوستين ، بل مع السندان ، مع قطع الحديد ، مع جميع ادوات الحدادة الصامتة الصماء ، وان كان يفترض عن قناعة غريبة انه اذا كان اوستين قربه ، جبيناً لجبين ، يعمل يتأوه ، يعطس ، يبتسم .. فهذا يعني انه يجب ان يدرك احاديثه بكيانه الحي كله ، لا سيما وان كلمات پانكرات كانت مسرة مبهجة دائماً ، سواء بالنسبة اليه هو ذاته او بالنسبة لاوستين

ـ لا بأس ، اوستين . المهم هو ان لا نستسلم ، ان لا نُضرب من تحت . يضعف الانسان وعندئذ هو ارق من الماء ، يتقوى فاذا به اصلد من الصخر،اي نعم . ليس ثمة من شيء في الدنيا يوجد بهيئة جاهزة ، بما في ذلك المعدن الفلز ، لنأخذ الفولاذ مثلاً .. فهو ليس سوى حديد

صلب ، مقسّى : لقد مرّ بالتقّسية واجتاز السقي وحصل على بعض الاضافات من خلائط معدنية اخرى مكملة .. وكذلك الناس . فنحن نبدو كلنا من عجينة واحدة ، من الطينة ذاتها ، لكننا لسنا جميعاً متساوين في المتانة والمناعة والرسوخ : لكل صلابته ، سقْيه الخاص

باشر القينان في هذا اليوم عملية اللحام ، لقد وطدا عزمهما على ان يدخلا في حيز العمل جميع القراضة من قطع الحديد العتيقة المستعملة التي حصل مدير المزرعة التعاونية عليها في المحطة . كان پانكرات ، منذ اول الصباح ، صارماً صامتاً ، ينبش باهتمام في ركام قطع الحديد التي جلبت الى الورشة ، باحثاً عن الخامات الصالحة للحام . بعد ذلك طلب من اوستين ان يحجز من الداخل نافذة الورشة بلوح من الخشب الرقائقي للحيلولة دون نفاذ النور . وفي الظلام بدأ يحدد ، بحك المعادن على الشرر ، نوع المعدن المفحوص وعلامته . فعل ذلك ببساطة:كان يأخذ السبيكة المعدنية ، يدنيها من عجلة صنفرة في حالة دوران فكانت تضرب ارضية الورشة ـ في تلك اللحظة ذاتها ـ حزمة صغيرة من الشرر الساطع كالنجوم . ووفقاً لالوان المعادن واطوالها واشكالها ، كان پانكرات يعرف الكثير عن عوائد وخواص هذا المعدن اوذاك

ـ سليكونية .. لا بأس بها للزنبركات والنوابض . الصلابة ضئيلة ، لكن ما العمل ؟ نحى پانكرات وكأن قد طمأن نفسه بصوته المسموع جهاراً ، نحى جانباً قطعة الحديد المفحوصة التي قطع الصنفر قبل قليل عنها حزيمات الشرر الساطعة الاصفرار . كانت الشرارات تظهر بالوان مختلفة : تارة حمراء غامقة ، واخرى بنفسجية ، وثالثة بيضاء ... وقد

بدت لعبة الالوان هذه كأن لا نهاية لها . بيد ان الحداد العجوز المحنك نسق بحيوية قطع الحديد ـ متذكراً كلاً منها ـ تبعاً لخواصها الطرقية ومشى نحو الكير .

احترق الفحم جيداً اشار پانكرات برأسه الى اوستين ، فأسرع هذا يدس الحاجات الثقيلة الوزن داخل النار ، ذاراً عليها كمية اضافية من الفحم . بعدئذ اخذ پانكرات يتمشى ، مترقباً ، جيئة وذهاباً بمحاذاة الفرن اما اوستين فراح يدخن في ناحية اخرى ، منتظراً الاوامر وسرعان ما غمزه پانكرات مبتسماً وقام بحركة واضحة مفهومة ان تعال انظر واعرف بنفسك،اجيدة هي حرارة اللحام ، الم يحن الوقت لسحب المواد المطرقة ، اما آن اوان البدء بالعمل .؟..

خطا اوستين نحو الكور وحدق النظر،مضيقاً عينيه في قطع الخزين المتوهجة الشبيهة بكتل مستديرة من الجمر الارجواني التي راحت تتحرك فوقها شرارات بيض مزرقة وألسنة من نيران تكاد تكون عديمة اللون ، دلت جميعها على ان حرارة اللحام قد بلغت مداها ، غير انه لما يحن الوقت بعد لاخراج المعدن من النار . كان من المهم ، حفاظاً على درجة الحرارة ، ان يوقف مؤقتاً اشتعال المعدن نفسه ، لتفادي الاحراق المفرط او الكلي الذي قد يؤدي الى اتلاف الخزين من المادة المعدنية . وهنا جاء دور الرمل الناعم الذي جلبه اوستين من النهر سلفاً . هال مغطياً المواد المخزونة ، التي كانت تتلألأ مطلقة الشرر ، بطبقة متساوية من الصهور الذي تحوّل فوراً الى خبث شبيه بالزجاج ، منقذاً الخزين من التأكسد . وبعد فترة انتظار وجيزة ، انتشل اوستين من الفرن بالملقاط شظية من محور عجلة ، وضعها على السندان ذي

القـرنين ، تنـاول من فوق عـارضة الادوات ازميـلاً كبيراً قـدمه الى پانكرات ، وكأنه في واقع الحال ـ يقول له المحور سوف نلحمه اجزاء ، قطعاً قطعاً

ـ احسنت يا اوستين ! ارى انك الان من المرجح قادر على توجيه دفة الامور بدون وجودي ـ كلم پانكرات نفسه بصوت عال ، باتجاه ذقنه ، في حين ارى اوستين قبضته الضخمة السوداء من اثر الفحم ، بابهامها البارز بفرح الى اعلى

بقيا ، حتى الغداء تمـاماً ، يلحمـان سدادات وحلقـات مختلفة ، محاور عجلات ، سكك محاريث ..كما انهما راحـا يدقـان ويشدان الاطواق والاحزمة المعدنية المسخنة على العجلات وعرائش المركبـات الخشبية فأخذت تعوم في الورشة رائحة غثة لم يتسن لها ان تتعرض للجو فيمتصها ويـزيلها ، تلـك هي رائحة الحـديد الحـامي لدرجـة الاحمرار . كما اخذ ينتشر ايضاً دفر غاز الفحم الخانق ، المنبعث مع بخار زبد الحديد ودخانه المتصاعدين

شرع اوستين يحمل ناقلاً وحده ـ حفاظاً على العجوز پانكـرات ـ جميع الاشياء الثقيلة على بطنه ، فتصبب جسمه عرقاً وصار يلمع من اثر النتح .. وسرعان ما غدا اشبه بالوقاد الحقيقي منه بالحداد !

-١٣-

عند الغداء ، حينما نشر كل من پانكرات واوستين زادهما البيتي ، اقتربت من الورشة سيارة البيكاب وهي تتصبب وحلاً . وفي اللحظة ذاتها حجبت جثة فيودور بريديخين الضخمة المربع الشمسي لفتحة باب الحافلة . في اثر السائق راح يخمع[١٣] في مشيته رجل ضئيل الجسم ، قصير القامة ، ذو ساق خشبية ، هو محاسب المزرعة التعاونية كوستيوشكا

ـ السلام عليكم ، معشر الحدادين ! ادى بريديخين التحية بصوت جهوري وراح يتمشى على ارضية الورشة الترابية متخذا مظهر من قدم لكي يعطي الاوامر

رد عليه پانكرات ، وهو يزيل القشرة عن قطعة من البطاطس المسلوقة ، رد عليه بايماءة خفيفة من رأسه ، ثم اشاح بوجهه عنه نحو منضدة الطعام

ـ ارى ان زادكم رديء ، ايها الاخوة الطراقون،من الفجل البري الحار !.. ترى الى اين ينظر مدير مزرعتنا التعاونية ، كيف يفكرْ !؟ لم لا يلتفت الى هذا ؟.. اسمع ياكوستيوشكا ! بلّغ ڤاسينين حالاً ان يخصص للحدادين ارزاقاً اضافية !.. ـ دوى باهتمام صوت

١٣ ـ يخمع: يظلع (يعرج).

بريديخين ، غير ان في نظراته وفي حركاته كانت تبدو نفس تلك الوقاحة المرحة ونفس ذلك الزهو اللعوب المألوف الذي كان يحماه معه ، هوسائق السيارة الوحيدة في المزرعة التعاونيـة كلها ، كلمـا عرج عـلى ورشة الحدادة،وكانت له ، اضافة الى ذلك عادة سيئة هي انه يتسلل الى جميع زوايا الورشة ؛ يخطف ادوات الحدادة دونما اذن ، يضايق الحدادين بنصائحه .، الامر الذي كان يغيظ پانكرات الى ابعد حد . وكان ينشأ في الورشة بفعل صوت بريديخين الملعلع وضحكته القاصفة ...، وبسبب من جسده الكبير الحجم والكثير الحركة كان ينشأ نوع من التشويش الصاخب والاضطراب المخل بالنظام داخل الورشة

ـ باختصار،ما الغاية من مجيئك ؟ موقفاً بريديخـين المهذار عنـد حده ، سأله پانكرات بصرامة

- الزنبركات ، هلا عملتهـا للعربـة المقطورة بشكـل من الاشكال ، وبسرعة ... ! فأنا لا استطيع الانتظار بأية حال . يوم السبت علينا ان نرحل الى المحطة لجلب الفحم ـ واخرج بريديخين ، اثناء كلامه هذا من جيب بنطاله كيس تبغ نثر منه حوالي نصف ماخوركا على المنضدة، امام پانكرات . صنع ذلك بروح المسـاومة ، لا بـدافع التخفيف عن الحدادين ، كلا ابداً . بل بالاحرى بـدافع العطف عليهمـا الطعام هزيل ، فلتدخنا في الاقل كما يروقكما !

ـ لا نستطيع،بأيـة حال من الاحـوال ، تلبية الطلبـات المستعجلة للغاية . امامنا الادوات الزراعية هي الان في المرتبة الاولى ـ شرع الجد پانكرات يوضح له الامر بهدوء وبصوت خافت ، دون ان ينظر الى تبغ الماخوركا ـ مدير المزرعة التعاونيـة نفسه قـال ذلك ، كلفنـا ، اصدر

تعليماته

ـ جميعنا نقول ، لكن لا يجري كل شيء طبقاً لما يقال . ـ لم يكن على وجه بريديخين ذي العظمين الوجنيين البارزين والحاجبين الاسودين والعينين الكستنائيتين المتقدتين الجامحتين ، لم يكن ثمة اي ظل من كدر . على العكس، فبعد ان طرق سمعه جواب الرفض صار أكثر مرحاً من قبل ، رمى سترته من على كتفه وتهيأ للعمل ـ اللسبان يتكلم اما اليدان فتفعلان.نحن الان سريعاً بأربعتنا نحن ليس الزنبركات وحسب،بل وحتى الشيطان نستطيع ان نصنعه بالطرق.انا شخصياً بي رغبة شديدة في ان الوح بالملطاس آه ، اين هو ، ذاك الذي يليق بمنكبي ؟! ايها العم پانكرات ألا هيا ، قم وجهنا

ـ كفاك عبثاً وتشويشاً . عندك سيارة البيكاب ، وتستطيع ان تصدر اليها اوامرك ، اما نحن فلا تترم على رؤوسنا بصلاً ، ولا تلعب معنا لعبة النطة ، دعنا من هلسك [14] وترهاتك.ـ ترك پانكرات منضدة الاكل نافضاً الفتات من مئزره . وسحب الملطاس من يد بريديخين

ـ فلنذهب !ـ بصوت خافت ولهجة متأثرة تكلم كوستيوشكا المحاسب وهو يلوح بيده يائساً . وقد كان حتى هذا الحين يستمع ساكتاً الى ما دار من حديث

ـ فلنرحل .. وسنعمل نحن الزنبركات ـ تقدم بريديخين مقترباً من ركام الحديد ، ننتش قطعتين صدئتين من الواح الصلب . ها ، بامكاننا الان ان نفصل زنبركين

---

١٤ ـ الهلس :ـ الكلام الفارغ (لغو. هراء)

ـ اسمع ، انت‌الا تتصرف تصرف الاسياد المالكين ، اي نعم !.. انظر بعينيك ولا تلمس بيديك . ما ادراك لمن يعود هذا المخـزون ! ـ صرخ پانكرات مغتاظاً وشحب وجهه ذو اللحية التي اشتعلت شيباً ـ ترى من اجل ماذا كرموك ، انت الـوقح الصراخ الصخـاب ، نوط الشجـاعة هذا ؟!ـ

ـ هكذا ، من اجل حنجرتي كرّمت ! ـ تكلم بريديخين بفرحة عاصفة ومسح بكمه وسامه الذي راح يتدلى ، وحيداً يتيماً ، على قميصه الملطخ بزيت المحركات

بيد ان بريديخين،الذي بقي واثقاً بنفسه ثقة لا تتزعزع ، قرر ان لا يتعجل الاحداث لن يؤخذ الجد پانكرات بالوقاحة . رمى بريديخين قطعتي المعدن من يده ، جلس على المصطبة الى جانب اوستين ، مدّ اليه الجريدة وكيس الماخوركا

ـ هكذا اذن ؟ من المرجح ان الآمر قد اصيب بالصمم من صوتك ، ولكي يتخلص منك ...ـ رفع پانكرات قطعتي المعدن من الارض واعادهما الى مكانهما السابق

ـ وانت ايضاً تعال اجلس دخن معنا ، ايها العم پانكرات ، أم انك تتقزز مني انا المحارب القديم المعوق ، ها ؟ ناوله بريديخـين سيكارة «لف» جاهزة نظر پانكرات الى النوط ثم الى يد بريديخين اليسرى : لاح ظاهر الكف ، بلونه الوردي ، مصقولاً من اثـر لفحات الحـروق اما اصبعا الابهام والسبابة فقد تشابكا معاً وكأنهما يشيران الى «شيء تافه» لا يعتد به ، وبقيا معقودين ، ملتويين هكذا . كان يعلم ان ليس ثمة اي خدش آخر غير هذا على بدن بريديخين الهائل الضخم . لكنهم لم يعودوا

بحاجة الى الاحتفاظ بمثل هذا الجندي في صفوف القوات المسلحة ، فسرحوه وصرفوه الى اهله . لكن يد بريديخين المصابة هذه لم تمنعه من ان يدير مقود السيارة من ان يكونَ مرحاً الى أبعد حد ، وان يبدو محظوظاً وسليطاً وقحاً ، قليل الحياء

ـ آه ، ياله من مكار !.يستدرجك بسهولة ويتسلل الى نفسك على هواه ، بلا صابون ! ـ وجه پانكرات كلامه لأئماً مؤنباً وهو يتقبل من بريديخين سيكارة اللف ـ هكذا اذن ، تقول انهم من اجل حنجرتك كرموك ؟ هل كنت تغني بصوت عال في الحفلات الموسيقية ؟!

ـ كلا ، انا لا اجيد الغناء . لم يهبني الله اذناً موسيقية الامر مختلف تماماً . ـضيق بريديخين عينيه الكستنائيتي اللوْن ،ظهرت على محياه الجميل ابتسامة رجل محنك يعيش حياة موفقة محظوظة ، كأنه معوّذ ، بلا ريب ، من الضنك والسجن والرصاص ـ ذلك هو انني كنت اقوم ذات مرة بنوبة الحراسة في الكتيبة وفجأة قدم الى الثكنة الرائد چيكاسوف .فوقفت امامه ،كالعادة طبعاً ، مشدوداً كالوتر وزأرت بأعلى صوتي «كتيـ....يبة ، إنْـ..تـ.. بهْ !»

ارتد پانكرات عن بريديخين وسد أذنيه براحتيه

ـ ثم قدمت تقريري الى الرائد مباشرة ،ـ واصل بريديخين حديثه وهو يقهقه ضاحكاً بصوت عال.ـ كذا ،قلت ، وكذا :اثناء فترة الحراسة لم تحصل اية حوادث .الجنود يتأهبون للغداء اصدر الرائد امره «استرحْ!» ثم انصرف الا ان صوته كان ناعماً رخيماً ، لا يصلح للحياة العسكرية ، ملائم جداً لمغازلة الفتيات تحت ضوء القمر ...في حين كان عددنا في الكتيبة يزيد على مئة فحل من الفحول الفتية القوية

التي على شاكلتي .كنا جميعاً من المجندين الجدد ، يجري تدريبنا عشر ساعات يومياً في ساحة العرض وميدان الرمي كانوايخضّوننا خضاً عنيفاً بحيث اننا لم نكن نستطيـع ان ننتزع في الصبـاح انفسنا من الفراش . ترى العرفاء يتراكضون ، يتصايحون . لكن الامر يظل كما هو : تقلقل وارتباك اثناء الاستيقاظ ... وهنا خطرت على بال الرائد . ثم سارت الامور فيما بعد على الوجه الاتي في الصباح الباكر يوقظني الجندي الخافر من النوم قبل الاخرين ارتدي ملابسي العسكرية اخرج الى وسط الثكنة واطلق ، بنبرة آمرة ، صيحة عالية صخابة هكذا «كتيـ .. يـ .. بة !!..» فيرتج زجاج النوافذ وتنفتح الهوائيات واذا بالفتيان كأن ريحاً اخذت تهوي بهم من اسرتهم . ثم تراهم ، وهم يغمغمون ، يقولون لي مازحين : ليس صوتاً هذا الذي عندك . يا فيديا بل هو هزيم رعد سماوي ، قذيفة مدفع هوتزر مزحت ام لم تمزح ، لكن المهم هو ان النظام والضبط قد تعززا في الكتيبة وسرعان ما صدرت الاوامر بالتوجه نحو الجبهة كانت رحلتنا طويلة . حط بنا القطار عند احدى المحطات الصغيرة . ما ان تخلصنا من تفريـغ حمولتنـا حتى اخذت طائراتهم تداهمنا ... كانت تحلق على ارتفاع واطىء ، تمطر من مدافعها الرشاشة على السطوح مباشرة ، وتسقط قنابلها !.. ايه ! لقد بدأت !... الجنود الشبـان اليافعون ، الذين لم يكونوا قد تنشقوا رائحة البـارود بعد ، منهم من تواروا مختبئين تحت المدافع ، ومنهم من راحوا يتحركون بسرعة جيئة وذهاباً تحت عربات القطار .نظرت واذ بالرائد چيكاسوف راح يجري مسرعاً بمحاذاة سدة سكة الحديد ، معطفه العسكري كان ينبعث منه

الدخان ، وهو نفسه يصيح ...اما ماذا كان يصيح فذلك امر لم يفهمه احد كان صوته ضعيفاً جداً ، لكنه اقترب مني راكضاً بسرعة :«ايها المقاتل بريديخين ، بلغْ الجميع الى الغابة ، بعيداً عن العربات ..اللعنة !» وهنا تميزت انا . تنشقت ما يكفي من هواء وصرخت كما يجب

«كـ...تـيـ...يـ...بة !»الامر . سمعه الجميع .بعد ان تلقوا التبليغ بدأوا انسحاباً محكماً الى الغابة .اما انا فقد اجتاحني انفجار وكبني قرب أحدى العربات ، مزق يدي ... نوط «المآثر القتاليـة» لحقني الى المستشفى

ـ وأية مآثر قتالية هنا ؟لقد جئت من المستشفى العسكري الى البيت مباشرة والى الابد .ولم تصل الى الجبهة مطلقاً . اخذ پانكرات يدمدم

ـ ولكنني قلت واقول لم يأتني النوط بسبب المعارك الحربية ، بل من اجل حنجرتي .لقد شجعت الناس وبعثت فيهم الجرأة اثناء البلبلة والاضطراب في لحظات الموت ، اخمدت الهلع الذي اجتاح نفوسهم تكلم بريديخين وكأنه يمازح نفسه

ـ ثم ماذا ؟ يحصل الناس على الخبز بالكدح والطرْق ، ويحصلون عليه ايضاً بالحنجرة والحلْق !..راح پانكرات يتمتم ساخراً سخرية هادئة بعض الوقت ، ثم اضاف ، وهو يرمي عقب السيكارة في النار ، قائلاً :ـحسناً سنطرق لك الزنبركات ان بقي لدينا وقت اما الان فهيا بنا نسرع في انجاز الاشياء المستعجلة . عاونا ان شئت

ـ ايه ، فلنجرب وليكن ما يكون !ـ صاح بريديخين متحمساً ثم خطا

نحو الفرن مستعداً لأيما عمل

ـ اعجب اوستين بالطريقة التي تحدث فيها بريديخين عن الوسام هكذا ببساطة وبدون تبجح او مباهاة عند سماعك حديثه تشعر بأن النوط جاءه بسهولة وبدون مقابل تماماً

وفي الحقيقة انه لم ينله ، طبعاً، من اجل حنجرته وحسب الا انه لم يموه الحديث ، ولم يزخرف شيئاً ، مع انه كان بامكانه ان يفعل ذلك ، كما هو شأنه دائماً هكذا بالضبط في غالب الاحيان ، حيث يكذب ويكذب بدون ايما خجل كل حكاية ـ كما قالوا جميلة عند الزخرفة والمغالاة اجل كان بامكانه ان يخرّم بلسانه مثل هذا ومعه مبرر دامغ هو نوط الشجاعة . كان بامكانه ان يصنع من نفسه بطلاً وأي بطل لكنه في واقع الحال ، ابى ذلك ، بل وفعل العكس ايضاً حين بسّط هذه الحكاية برمتها ولخصها بالجرح والنوط.ولم يكن هذا شبيهاً ببريديخين ، كما انه لم يكن مفهوماً بالنسبة لاوستين

في غضون ذلك ضرب بريديخين ، غير منتظر أوان يضع پانكرات المعدن المطروق امامه ، ضرب بلهفة على السندان وكأنه يستحث القينين . وظهر من جديد في نظراته وحركاته صلف وغرور وقحان ، فادرك اوستين فجأة ان بريديخين وهو يتحدث متبسطاً عن التكريم الذي ناله بنوط الشجاعة كأنما يجعلهما يدركان ، هما القينان الشديدا المراس ، أنْ ليس له ، هو شخصياً ، فضل ذو شأن في استحقاقه هذه المكافأة ، بل ليس ثمة اي فضل بالمرة . وكل ما في الامر هو ان فيودور بريديخين هذا شخص محظوظ جداً موفق دائماً واينما حل . وحتى الحرب نفسها استطاع ان يخرج منها ـ كالاوزة من الماء ـ دون ايما

ضرر . وان لا جدوى من الحؤول بينه وبين ما يريد فمهما حاول پانكرات ، مثلاً ، ان يصر ويعاند فان كل شيء ينتهي،طبعاً ، كما يشتهي هو ، بريديخين،وبطريقته الخاصة

لم يمض الا اقل من نصف ساعة حتى بدأ بريديخين ينضح عرقاً نفدت قواه ، فرمى الملطاس جانباً وجلس على المصطبة يدخن

ـ اي ، جعجعة بلا طحين هيكل كبير ونفع صغير ! ـ قال پانكرات متحرشاً . انظر الى اوستين ، انه يطرق بالملطاس عشر ساعات في اليوم

ـ كوستيا ، هيا خذ مكاني!ـ صاح بريديخين بلهجة آمرة

سار كوستيوشكا بخطى متثاقلة نحو السندان ، قبض بجرأة على الملطاس ، لكن هذا سرعان ما غدا في يديه الهزيلتين الضئيلتين ضخماً وثقيلاً حدّ الافراط . بيد ان كوستيوشكا الذي اجهد نفسه جهداً باهظاًاستطاع اخيراً ان يلوح بالمطرقة وهو يوشك ان يحلق معها . كانت ضرباته واهنة وطائشة،والأهم من هاتين انها كانت خطرة بالنسبة للمسكين كوستيوشكا ذاته : وجهه العصفوري المدبب عظمي الوجنتين، غدا احمر ارجوانياً مضرجاً بالزرقة ، اما جبينه فقد شُدّ كله باوتار عضلية منتفخة متورمة .. ولم يطل اوستين التفكير ، انتزع منه الملطاس وانتصب هو نفسه امام السندان

ـ ايه ، لقد سار العمل وطاب . كلمة واحدة هي اوستين !..اجل؛ وليس سوى اوستين !..ـهتف پانكرات بسرور متوهجاً صوب بريديخين ودس بالملقاط قطعة حديد متوهجةحمراء تحت مطرقة اوستين المحكمة الصارمة القوية...

-١٤-

انك امرؤ رائع يا اوستين!..تكلم بريديخين ،مهمهماً ،عندما جلسوا جميعاً لفترة استراحة وتدخين قصيرة هز اوستين رأسه وعلى شفتيه ابتسامة متسائلة

- اقول انك امرؤ رائع ،ما دامت تحتك امرأة من الطراز الاول - قال بريديخين ذلك ملمحاً تلميحاً غامضاً غير مفهوم

-لماذا ترمي دبابيسك على رجل اطرش ؟ اهرش لسانك معي ان شئت ذلك ..ما الرديء في فروسيابنظرك ؟- دمدم پانكرات متذمراً.

-ولكنني اقول مؤكدا :انها انثى من فصيلة نادرة اصيلة .اين منها زوجتي دوسينكا !..

- اي نعم .في زوجات الاخرين يودع الشيطان ملاعق من عسل ،فهن الافضل دائماًا -مزح پانكرات مؤنباً بريديخين ،وطلب بايماءة منه الى اوستين ان يقدر الصلب اللازم للعربة المقطورة . فرمى اوستين عقب سيكارته في الوجاق وتنحى صوب الركن المعتم ،حيث كانت تستقر قطع من صفائح الصلب

-بالضبطما قلته هو الحقيقة بعينها ..كانت لي ذات مرة معها ،مع فروسينكا مناوشة،يعني بعبارة اخرى ،محاولة جس نبض استكشاف بالقوة .اجل،- واصل بريديخين حديثه وقد اكتسب وجهه مرة اخرى ،ملامح الرجل المحنك المحظوظ الى ابعد حد. - يالها من

مناوشة !لا اوقعك الله في مثلها !...آه لو كانت اذنا اوستين تسمعان الان كلماتي .. لنلت اذن من ملطاسه ما ينبغي لي ان انال .. وانه لامر مشروع ،دون شك

ـ دع اذني اوستين وشأنهما،هو اصم ، غير انني حاد السمع .وبما انك بدأت تدعر مثل اي كلب ذكر فخير لك اذن ان لا تهرف اكثر مما هرفت ؛[١٥] عضّ على لسانك .فهو لا يجري عليه اي شيء حسن ابداً ،اما الفواحش والقبائح ، فحدث ولا حرج ـ تكلم پانكرات منددا وفي الوقت ذاته مغتفراً متشفعاً... ولكي يضيّق الخناق على بريديخين اضاف قائلاً :ـ

وما دام الامر قد جرى في هذا المجرى فحدثنا اولاً كيف تلاطف امرأتك دوسيا بلكمات قبضتيك

ـ في الحمام ،بالمقشة ؟وضح بريديخين ملطفاً الكلام بابتسامة ....ـ نعم !...اما القبضتان؟فكيف تطاوعني نفسي ان اطلق لهما العنان ؟!هاك انظر اليهما ، يالهما !..أُرضّ بهما حتى الموت في لحظة لا ،ايها العم پانكرات ،انا بالنساء ، بنسائنا اللطيفات الرقيقات ،مولع ابداً ، عالق بشريط جد قصير .اي نعم.مهما حدث في الكون ـ حرب هناك ام سلم ـ تظل النساء لدي في المرتبة الاولى من مجال اهتمامي .انا حتى في الجبهة

ـ يتحدث وكأنه كان في الجبهة حقاً

ـ كنت ام لم اكن،

ـ لكن رائحة البارود شممتها

---

١٥ ـ هرف:ـ ثرثر كثيرا وبلا جدوى. نقول: لا تهرف بما لا تعرف.

ولا تظننّ ان الحرب تشكل عقبة امام الرجل مادام القدر يبتسم له .ولا تقف حائراً امام رزق بعثه الله اليك .هاكم ما حدث لي ...في الخريف ما قبل الاخير نقلوني الى المستشفى العسكري مشويّ اليد بفعل عملية القصف الجوي اياها .كان حمّام المدينة يقع على مقربة من المستشفى عبر سور صغير.وكان الجرحى ، الذين يستطيعون الوقوف على اقدامهم ، يذهبون كل يوم سبت للاستحمام هناك اما انا فقد كنت معافى تماماً ، مثل عمود التلغراف .عدا ان كفي اليسرى كانت داخل الضماد .ارتدي قفاز المطاط ثم اسرع الى الحمام ،حيث الينّ بالبخار اوصال اصابعي ،تنفيذاً لمشورة الطبيب الجراح .ما ان حلت سويعة الاستراحة حتى وجدتني دائب الحركة ذهاباً واياباً ، أتلصص مبصبصاً ذات اليمين وذات الشمال ..واذا بهن ،عاملات الحمام ، هناك..نسوة تقرّ لهن العيون وتخفق الالباب .رنوت الى واحدة منهن ،ألفتها .كان اسمها ليوبا .ممتلئة ملفوفة كبطة ايلول .استشهد

زوجها في الشهر الاول من الحرب بقيت مع ابنتها ذات ست السنوات وشقيقة زوجها العليلة .اما هي فامرأة كدود ، وديعة ، صبور ..تقول للبلية استكيني!فتستكين .المصائب لا تقاضيها ،بل اصبر عليها ،تحمّلها. ولسوف يكون كل شيء بمشيئة الله على ما يرام ، رويداً رويداً .تلكم هي ، يعني ،امرأة ذات عقل وارادة ،بشوشة لطيفة ،مهندمة نظيفة .وصرت اتردد كثيراً على ذلك الحمام كنت مستعداً لان امكث فيه اليوم بطوله

- ودوسيا المسكينة كانت هنا تترضض، تصنع المستحيل ،تمنع

اللقمة عن فمها لتبعث بالرزم الى المستشفى ،باذلة جهدها في ان يعود زوجها الجريح الى البيت معافى مشافى ،بأسرع وقت ممكن. اما هو ،تباًله !..فقد عثر على حمّام !ضحك بانكرات متقززاً ،ضحكة ساخرة

ـودار بيننا غرام ما بعده من غرام !واصل بريديخين حديثه ،معبراً بوجهه عن الم لذيذ.ـ تمنت ليوبا ان اكون لها الى الابد . حملت مني جنيناً.كانت تقول لي سأكون بانتظارك حين تعود من الجبهة ولعلها ،هي الغالية ،تنتظرني ،تترقب الان عودتي . وهكذا ..انك ، انت نفسك ،لا تدري اين يلقاك الحب ، ياحبيب !...

ـ وأي حب هذا الذي تتحدث عنه ! وعدت المرأة بمختلف الوعود ،استمتعت بها ردحاً من الزمن ، استفدت منها ثم وليت عنها هارباً .كالهر في شهر اذار ،تفو ! ـ نهض بانكرات منفعلا ، لبس قفاز الحدادة ، خطا نحو الكور ، لمس بالملقاط قطع الحديد الضاربة الى الحمرة في داخل الفرن . لما تكن قد بلغت بعد مستوى الحمْي القابل للطرق .هزّ المنفاخ بعض الوقت،ضاعف الحرارة ثم عاد ثانية للجلوس على المصطبة : كان يجب الانتظار عشر دقائق اخرى

ـ لم أعدها بشيء . لقد جرى كل شيء في وفاق ورضاه ـ تكلم بريديخين ،غامزاً بعينه شخصاً ما.ـ دفّأت المرأة ،اشفقت عليها

ـ آه،كيف اشفقت عليها !كان يعيش في كنفها فمان فوهبتها فماً ثالثا .ثم شمعت الخيط ، مطلقاً ساقيك للريح . نظر بانكرات عابساً متجهماً الى بريديخين .ـ اشفق عليها .. ظل الباشق يقبل الدجاجة حتى ريشتها الاخيرة !

ـ ولكن ..لم يكن الدب محقاً في اكله البقرة،ولم تكن البقرة محقة في ذهابها الى الغابة . ـ تكلم بريديخين مهادناً ثم وضع يده على كتف پانكرات ـ عليك ان تعيش الحياة كما هي ، لا تطلب منها اكثر مما تعطيك !..

«شبكتها فانجذبت مرمية امامي
لكنني اطلقتها؛ ماناسبت مقامي

ـ لكن فروسيا ، في حساباتي،هي التي انطلقت،ولست انت الذي اطلقتها . فما قولك ..؟ـ بصوت مستعطف رفيع ذي خنة ، شرع يتكلم كوستيوشكا المحاسب الكتوم الصموت . لكنه ما ان اصطدم بنظرة من مقلتي اوستين المندفعتين من عتمة احدى زوايا الورشة حتى خرس لسانه عن النطق ، بل وجمد من فزع ؟ وقد لاحظ بريديخين ايضاً ما يشبه شيئاً مريباً في تصرف اوستين فراح يتطلع الى وجهه بتشبث وحب استطلاع ، كأنه يتفحص ، متفقداً ان كان الرجل مصاباً بالصمم حقاً ام لا

ـ ما كان ، كان ـ تنهد بريديخين ملتزماً الصمت

ـ يعني،هل ناسبت المقام ؟... هأ ـ هأء ـ هأ تكلم كوستيوشكا بصوت انثوي ناعم اغن ، ثم اخذ يضحك بارتياح . وسرعان ما غدا في نظر اوستين شخصاً قذراً حقيراً وسافلاً خسيساً ، الى حد لا يقبل الصفح

كأن كتلة كبيرة من الجمر ضربت اوستين في رأسه . بدأت تمر امام عينيه ،مروراً مسرعاً مضجراً ،ذرات رمادية غبراء .وبدا جسده ،كيانه كله ، كما لو ان الآماً شديدة مبرحة ساخنة قد نفذت اليه نفاذاً ... كانت كلمات كوستيوشكا هذه البسيطة في ظاهرها ،الفظيعة

المفزعة بما تنطوي عليه من دلالات ،كانت هذه الكلمات ذات ايحاءات وقحة وسمجة للغاية ..لقد عاش اوستين معانياً ،ذات مرة ،ما يشبه هذا الاحساس يوم خيطوا له في كتيبة الاسعاف الطبية ، قصبة انفه الممزقة المخروقة . جرى ذلك بسرعة وفظاظة ومن دون حقنة تخدير لاح المخيط اوانئذ وكأنه حربة نارية ذات شخشخة ثاقبة تخترق الرأس اختراقاً

ـ دع الغازك واحاجيك جانباً !...تحدث عما تريد كما هو،بدون ابهام . بدأت،اذن واصل حتى النهاية لا تبذر بذور النمائم والاقاويل عبر حكاياتك المتقطعات ... هاك انظر الى امين الصندوق ذاك الملفق الافاك ، ذي الساق الخشبية العرجاء كيف راح يُهلس،كاشفاً عن تكشيرة خبيثة ... وجه پانكرات نحو كوستيوشكا نظرة عابسة متوعدة عنيفة . لسوف تكمل تكشيرتك البشعة !.. فالضحكة الخبيثة تضرس الاسنان

ـ نعم ، ولكن عم تريدني ان اتحدث،ايها العم پانكرات؟ـ اجاب بريديخين ، متسائلاً بسذاجة ولطف ، غير مخف ـ مع ذلك ـ ابتسامة شيطانية ماكرة ـ لقد عدت بخفي حنين ، تركتني وانفي هذه الفروسيا الملعونة وكما يقول المثل : مثلي يبحث عن الصوف ، رجع وشعر رأسه منتوف

ـ الى اين مشيت؟! ضغط پانكرات كلماته بقوة وقد استبد به الضجر والكدر : بدأت تزعجه مداعبات بريديخين السخيفة

ـ ما مشيت ، بل ركبت .. حسناً هل تذكر يوم رحلنا في الربيع انا وفروسيا بحثاً عن البطاطس ؟. بدأ بريديخين حديثه وهو يشعل

سيكارة

ـ نعم ، نعم .. قطب پانكرات جبينه متذكراً

تلوى اوستين في مكانه ، تكمش متقفعا بأجمعه لكي لايرى نفسه ، لكي لايندفع هاوياً على رأس بريديخين بالمطرقة المستقرة تحت قدميه

– توجه فيودور بريديخين ـ وكأنه لم يلاحظ اوستين ـ بحديثة نحو پانكرات وكوستيوشكا . تكلم متذكراً ربيع عام اثنين واربعين الصعب العسير

ـ لم يكن البذار قد انتهى في مزرعتنا التعاونية بعد . غير ان الحاجة اقتضت ان تغرس البطاطس في المباقل الخاصة لكن من ذا الذي يغرس ؟ النساء في الحقل ، الاولاد في المدرسة ، العجائز والشيوخ جالسون في البيوت مع الاطفال الصغار وأما بعد ، فقد بان ماهو اسوأ نظرنا الى أقبية المؤونة فاذا بالبطاطس ضئيلة جداً لاشيء تقريباً . لقد اتينا عليها في الشتاء ، اذ لم تقم مائدة الطعام إلا على البطاطس . لم يبق منها ، حتى لأجل البذور ، سوى القليل . وسرعان ماطرق الاسماع ان وضع البطاطس جيد في منطقة الشمال جمعنا النقود بمساهمة عدد كبير منا ، ثم توجهنا قاصدين مدير ادارة المزرعة التعاونية قرر ، من منا توجهه للرحيل !.. فأوصى المدير قائلاً من زريبة البقر تؤخذ يفروسينيا ديدوشيفا ، ستحل محلها الجدة زاتسيپيخا . ولكي يأخذ الامر مجراه بسرعة وضع المدير تحت تصرف ديدوشيفا سيارة البيكاب عوضاً عن النقل بالعربات

أصاخ اوستين السمع ثم اخذ يتذكر : لقد كتبت اليه فروسيا ، ذات مرة ، عن شيء من هذا القبيل . نعم ، نعم ، عن رحلة البطاطس هذه

ذاتها . لم تكن فروسيا راغبة في ان تغيب عن الطفلين ، تاركة اياهما في الدار وحيدين الا ان المدير وعدها بأن تتعهد الولدين بعين الرعاية الحسنة البارة ..تلك الجدة العجوز زاتسيپيخا نفسها ؛ جارتهم التي من اليسير عليها ان تقوم بذلك ، لأنها تسكن لصق دارهم . لكن الجدة هذه لم تحافظ على الصغير ڤاسيليك ، فقد اصيب بالبرد واوشك ان يفارق الحياة . وكتبت فروسيا تخبر اوستين ، يوم كان في الجبهة ، بشأن هذا المرض ، فراح يشتم لاعناً بصمت ، وهو يقرأ الرسالة في خندقه . رحلة البطاطس تلك جميعها ، كبلية مميتة تقرع محدثة ضجيجاً مدوياً فوق ام رأسه تماماً . وها هي ذي البلية ذاتها تعاود الكر من جديد ، كأنْ لم يكفها ما أحدثت من ضجيج قاتل في المرة الاولى !.

ـ آه ، فروسينكا ، قلت لها ، فلنشدّ الرحال بأمعائنا الخاوية ولنطرق الابواب على الناس الاخيار !..ـ تحدث بريديخين وعلى شفتيه ابتسامة مباهاة حمقاء .ـ رمينا في جوف البيكاب حزمة من الاكياس الفارغة ومعطفاً من فرو الضأن ثم تحركنا الربيع حولنا في كل مكان ، لكن الطرق موحلة اخذنا نتزحلق دون ان نتحرك من مكاننا . سيارتنا الهرمة كانت تنحني منزلقة امام كل حَدْبة ، كل منعرج ، كل اخدود وكان شغلي الشاغل هو أن اثب في كل لحظة من الكابينة لأدفع السيارة ، انتشلها من الاوحال . لقد تبللتُ ، تنقعت ، توحلت ، صرت أشبه بالشيطان شكلاً . لكن النفس كانت مرحة منفرجة : امرأة شابة تجلس الى جانبك ، تنظر بعناية اليك ، ترعاك . اما انت فسعيد بأن تجدّ وتسعىٰ ..لو لم تكن فروسيا معي لخارت سريعاً جميع قواي ، لانطلقت الشتائم والكلمات الفاحشه تترىٰ من فمي جهاراً امام مثل هذا الطريق

المقعر . لكن شيئاً من ذلك لم يحصل . واصلنا الرحيل نمزح ونضحك ، اسكب لها النوادر والنكات وما الى ذلك ، أحاول ان أتحسس مزاجها في صدد الغرام ، هل تقع في الصنارة أم لا ؟ أعرج عـلى الموضـوع من بعيد ، مخافة ان اجعلها تجفل فتنفر أقول لها : حننت الى مـلاطفة زوجك ، أليس كذلـك ؟ فتقول «اشتقت الى صـوت اوستين ، ليتني أسمع منه ولو كليمة واحدة !» . أجل ، اقول لها ، لقد كان صدّاحاً رنان الصوت رخيمه لست ادري زوجة مَن غدوت لو لم تكن ثمة أغـاني اوستين واكورديونه «وهل تراني تزوجته من اجل الأكورديـون ؟»- قالت لي متسائلة «ولمَ لا ، - قلت . - انه غواية ، طعم لذيذ يجـذب الصبايا» . - «هه ، أتعلم كم من غوايات لدى حبيبي اوستـين ؟! إنه أمامك ميكانيكي ونجار ، وهو يلبد الجزم الشتائيـة ويحبك معـاطف الفراء مثلما يجيد العزف والغناء ... اما رسائله التي يكتبها الان إلي ، فما أرقها !.. كأنها ليست مرسلة من ساحة حرب اية كلمات لطيفة حنونة يختارها !.. أحس انه شديد الشوق ، يستوحش . وعلى الرغم من انه هناك بصحبة رفاق السلاح ، لكنه - مع ذلك - وحيد قلباً . وهذا يعني انه هنا في البيت ، معي ومع الطفلين» ... اجرب ان أدوزن فروسيا على منوال اخر اقول لها ولكن لاوقت للوحشة هناك لا يفسحون المجال . انها الحرب . هناك ، اقول لك يا فروس ، تتوافر امور كثيره فما عدا الرفاق توجد ثمة رفيقات ، وأية رفيقات ! وفي الحرب هكذا اليوم انت حي ترزق ، وغداً تذرف الارض عليك الدمـوع . فلا تقف مكتوف اليدين اذا ما وهبك الله التوفيق . ورحت احدثها عن اشيـاء تتعلق بمغامراتي . فطلبت مني ان اوقف السيارة وانتقلت من مكان

جلوسها في الكابينة الى جوف السيارة ، قائلة الجو منتن جداً داخل الكابينة ، دخان خانق ، رائحة البنزين المحروق

وجدنا البطاطس في بويانوفكا . اشترينا بالجملة ملْء كيس من هذا وملْء كيسين من ذاك ... وشيئاً فشيئاً جمعنا كمية تقرب من طن ونصف الطن . كان أمامنا في طريق العودة حوالي مئـة وعشرين كيلو متـراً ، خشينا ان نقطعها ليلاً . بتنا عند احدى النساء ؛ فروسيا في المنظرة مع ربة الدار ، وانا عند الموقد الحجري ، على المنامة الخشبية

في الصباح بدأنا رحلة العودة . وبعد مضي ساعتين تقـريباً ، وفي منتصف الطـريق حدث عنـدنا عطب طـارت عـزقـات اسطـوانتي السيليندر انجررنا حتى ممر كورغانسك الجبلي ، ثم تـوقفنا . بـين بين ، كما يقال . ما العمل ؟ تلفت حولي ثم قلت لفروسيا :«يجب ان تكون ثمة من قرية وراء الممر الجبلي . سأمضي الى هناك ، اما انت فامكثي ها هنا لحراسة البطاطس» . حشوت لها البندقية ذات الماسورتين . يذكر ان جماعات مختلفة من اللصوص وقطاع الطرق المسلحين كانت تتسكع في هذه البقاع اثناء تلك السنة ، وكان رجال البوليس يقيمون الكمائن لطاردتهم . خذي الحذر ، قلت لها ، افتحي عينيك جيداً ، واذا بدر شيء ما فاطلقي النار

غبت عن فروسيا ثلاث ساعات ، عانت خلالها من الخوف كثيراً استقبلتني بفرح غامر . لقد عدت ، صلحت المحرك ، وكان علينا ان نتحرك قافلين . لكننا قررنا ان نتناول شيئاً من الطعام . جمعنا بعض الحطب اليـابس لاضرام النار . حضرنـا الشاي وجلسنـا نحتسيه ، متجاورين ، من وعاء واحـد وحولنـا هناءة الـربيع ، أجمـل بها من

هناءة !.. سماء زرقاء وارض خضراء مزهوة بفراشها العشبي الذي ظهر لتوه اما نفحات العبير ، فما أطيبها من نفحات !... ليس عبثاً قولهم في الربيع ، ليست الكائنات الحية وحدها ، بل وحتى شظايا الخشب تخوض مياه السواقي ليتسلق بعضها الاخر ! وهكذا أنا لقد تلخبطت ، شعرت كأن اعضاء جسدي جميعاً شرعت تتحرك فيها شهوة حيوانية عارمة متلهفة ... كتلك التي تستبد بذكور الكلاب !.. أما فروسيا نفسها ، فها هي ذي بجانبي ، اراها تنظر الي بلطف ، تعاملني معاملة طيبة الى حد ما . اغتسلت في الساقية ، سرحت شعرها بمشطها الخشبي وبدت أمامي رخصة ، غضة ، موردة الوجنتين ... فاذا بي احتويها ، اعتصرها ، ألويها ... فجأة

ـ هـا ـ ها ـ هـا ـ ها ، ـ اخـذت تتـدحـرج ، تـزيّق ضحكـة كوستيوشكا المحاسب ، تلك الضحكة التي اثارت مزيداً من الغضب في نفس اوستين المتوترة توتراً عنيفاً والمشدودة شداً قوياً في طرف خيط من أمل ما . وثبت مندفعة في داخله قوة انتقامية حاقدة شريـرة ... لكنه أحس ، في تلك اللحظة ذاتها ، انه ممتهن ، مدعوس ، قد وصم بالعار الى الابد الآبدين ... قبل ثوان معدودات كان مايزال يشعر بالرغبة في ان يصرخ ، ان يشد على لوزتي بريديخين شداً . بيد انـه ادرك الآن أنْ لاسبيل في مثل هذه الامور الى اصلاح اي شيء بالصراخ ولا بقبضات الايدي .لكن هذا الصرصور الذي يهأهىء مستخفاً ، ما مبعثُ فرحته ، ها ؟ ما الذي يبهج هذا الأعرج ؟ ألم يكفه خزيـاً أنْ هجرتـه زوجته الثانية ؟

تنحى اوستين محولاً بصره عن قطع الحديد ، رفع رأسـه ورمق

كوستيوشكا بنظرة من العتمة . أما هذا فانه حين واجه مقلتي اوستين البراقتين نهض من فوق المصطبة بهدوء وصمت ونكص متقهقراً نحو الباب وعلى وجهه العصفوري يوسوس رعب خرافي

ـ لم اصادف من قبل مثل هذه المرأة الجلْدة الحازمة الصارمة ، ـ واصل بريديخين حديثه ، ناظراً الى وجه پانكرات المتجهم الصارم العنيد ـ لقد عصرتها ، شددت عليها بقبضتي شداً جموحاً لوكان على صخرة لأستسلمت ، لانتْ اما هذه ... فكمشة من عفار غمرت بها وجهي ، ومن ثم تملصت ، أفلتت . وبعد ذلك جرت خاطفة البندقية من كابينة السيارة . «اقتلك فوراً ، ـ صرخت بي ، ـ كما يُقتل دُبّ ... جرّبْ فقط أن تمسني !» ـ «اوه ، فروسينكا ، ارحميني ، ـ قلت لها مستعطفاً . ـ لماذا تطلقين علي ، انا الأعمى ، الرصاص ؟ لقد هيلت العفار في عيني كلتيهما . من ذا سيوصل البطاطس اذن ؟ . جلَبتْ لي من الساقية ماء ، غسلْتُ عيني ، ثم تحركنا وفي الطريق بدأ الفأر يلعب في عبي من جديد . ورحت احدثها ، اشرح لها : الوقت ، يعني ، عصيب جداً ، يافروسيا ، انها الحرب اليوم ، كما يقولون ، انت على قيد الحياة وغداً يواريك التراب . يضاف الى ذلك ، أقول لها ، اننا نكد من الفجر الى الفجر دون ان نتنفس الصعداء . فهل نرتكب إثماً عظيماً اذا ما لهونا قليلاً ، اذا ما الجسد الفتي نعمناه ؟! أعطيناه بعض ماله من حق علينا ؟... آه لو رأيتم كيف ثارت ثائرتها ، كيف هبت جامحة تلغو ، تسب وتلعن ... لقد بدت وكأنها واحد من قادة التوجيه السياسي الحزبي !... وبختني ، خضتني كما يجب ... بحيث انني بدأت ، منذ رحلة البطاطس تلك ، احترم يفروسينيا ، ومن خلالها احترم أوستين

كذلك

انتهى بريديخين من حديثه ، وساد الصمت في ورشة الحدادة بعض الوقت . جلس پانكرات مستغرقاً في التفكير ... لكنه كان ، هذه المرة ، خالياً من تجهمه المهدد المتوعد ، الذي زال عن وجهه مع كلمات بريديخين الاخيرة

ـ تقول بدأتَ تحترم أوستين ، ها ؟! يا للعجب !.. لكن كيف يمكن ان يقال مثل هذا ؟... أنا لست بحاجة الى احترامك واهتمامك ، لاتحاول ان تمنحني رتبة ضابط صف ، ولاتلمسنَّ زوجتي ! ـ قال پانكرات ذلك بعد صمت قصير واشار الى الزاوية ، حيث كان اوستين يعالج ببطء وهدوء قطع الحديد ـ الرجل لايسمع وإلّا كان اسمعك مثل هذا الكلام تماماً

ـ ولكنه يسمع كل شيء !... ذلك واضح من وجهه ـ فجأة صرخ كوستيوشكا ، ضاحكاً ضحكة خبيثة ، نافذة مريبة ، بل وفظة جافية ايضاً ، وقد عاد في وجل من الباب حيث كان منزوياً بعد ان قذفت به نظرات اوستين الزاحمة

ـ لكنّ وجهك انت لايبين عليه اي شيء ، ـ تكلم پانكرات بهدوء ، دون ان يعير أية أهمية للحذر اللئيم الذي ابداه كوستيوشكا . ـ انظر كيف نما عليه الهلْب [١٦] كأنه وجه قاطع طريق ألا تخجل من نفسك وانت جالس للناس في مكتبك الرسمي بمثل هذه اللحية الشبيهة بشعر الخنزير ؟ أليست لديك شفرات حلاقة ؟ تعال إلي فأعطيك ادوات حلاقتي ، ان لحيتي لم تعد بحاجة اليها . انك لما تبلغ الاربعين بعد

---

١٦ ـ الهلب : الشعر كله او ما غلظ منه ، او شعر الذنب ، او شعر الخنزير الذي يخرز به

لماذا أسففت كل هذا الاسفاف اذن ؟ !واضح الآن لماذا هجرتك زوجتك ناستيا كوڤروڤا وذهبت الى حيث يعمل والدها في مقر ادارة الغابة . لقد حكمت المرأة عقلها فتدبرتِ امرها : خيرلها ان ترحل الى الغابة للعيش قرب دببة حقيقية من ان تمكث مع انسان ممسوخ ذي وجه ينمو بشاعة وقبحاً

جفل كوستيوشكا ، كما لو انه وطىء شيئاً مـا حاميـاً ، تململ في مكانه ،ثم بدأ يدور ،بعينه الخضراوين الصغيرتين الساطعتـين بحب الانتقام ،قرب الجالسين على المصطبة .ظل هكذا ،يتململ ظالعاً ، نحو دقيقة من الزمن الى ان وجد كلمات التبرير المناسبة

ـ انا لاأعيش مع الحمقاوات ! ـ صرخ بعصبية في وجه السقف

ـ الزوج السيىء لديه دائماً زوجة حمقاء ـ تكلم پانكرات بصوت واطئ ، ماراً يده على لحيته القصيرة

ـ وما السيىء فيَّ ؟اقبل كوستيوشكا مسرعاً نحو العجوز ،التصق به مباشرة ،فاتحاً على صدره سترته الرثة المبتذلة .هل أنا امرؤ دنيء ، أسكير انا ؟ويل لها !... لا أروقها ، مقرف في نظرها ، لأنني أنضـح عرقاً .رطب دائمـاً . هاكم انظـروا ،مثلاً ، فـانيلتي التي ارتديهـا ، جسوها !..انها ندية الان ايضاً ، كأنني مستحم لتوي .من اين لي ان اوفر لك ـ تقول لي ـ ما يكفي من الملابس الناشفة ؟.إذن ،من المذنب هنا ، خبروني ، اذا كانت عندي هذه الحالة المرضية العصبية ؟..قال الاطباء ان الاعصاب مرضوضة ،مكدومة ...وهذا هو سبب عرقي رحت الى الجبهـة نـاشفـاً سليمـاً وعـدت مبتـلاً سقيمـاً ...أنـا هكذا ،..اعتل،ابتل،ان صيفاً وان شتاءً أما هي ، جنية الغابة ،فهات

لها فحلاً معاق مشاق ...لكنني انا الاخر ايضا لي -مادام الامر هكذا - مطالبي واحتياجاتي الا هيا هاتوا اعيدوا اليّ ساقي السليمة ! ما حاجتي الى سويق الكرنب هذا ؟ هاتوا .. ها ، لستم بقادرين ؟ اذن ما الفائدة التي ارجوها منكم لكي اذعن ، ذليلاً متضرعاً اليكم ؟! تريدونني ان اظهر امامكم حليقاً ، نظيفاً ... لقد خسرت عافيتي في سبيلكم ، جدعت ، وتكسحت من أجلكم اذن فليتضرع الاخرون الي ، وليس انا

- قفْ كوستيوشكا ، فزمْلْ ! مسك بريديخين بكوع المحاسب انتظر وضّح !.. من ذا الذي يجب ان يتضرع الى ساقيك العرجاوين ، ها انا أم اوستين هذا ؟

- انك محشو بضجر بليد سخيف ، ياكوستيوشكا تريد ان يحترمك الناس لعاهاتك وتشويهاتك فقط لاتتوقع ذلك ، - دخل بانكرات في الحديث ، متعاطفاً ، دون موعظة او ادانة -ولاتسخط على الناس بلا سبب ان اليد والرجل تكسرهما فتألفهما...اما النفس فانك اذا أتلفتها ، جرّحتها . لن تأنس عندئذ بها ، لن تألفها . اي نعم

- داركوستيوشكا ،خامعاً في مشيته ، حول المصطبة وقد ابيضّ جِنْحا أنفه[١٧] ثم اقترب ، بعد ان التقى نظرة بريديخين المروضة ، اقترب من اوستين المقبل لتوّه ، وقف الى جانبه ولزم الصمت .الا ان اوستين ابتعد في الحال عنه ،حاثاً خطاه نحو السندان

---

١٧ ـ جنحا الانف: طرفاه

- آه،انك لتجمد ، مع امثال هؤلاء الثرثارين ، برداً حتى وانت واقف عند الكور،تذكر پانكرات،فجأة شيئاً ما ثم راح يقفو خطى اوستين

عملوا أربعتهم ، متكاتفين ، عملاً كثيراً ، ناجحاً ونافعاً ، حتى وقت متأخر من مساء ذلك اليوم ، دون ان يشغلوا انفسهم اكثر مما يجب بفترات استراحة وتدخين طويلة معوقة .تمكنوا من انجاز جميع الاشياء المطلوبة ، وكانو راضين مرتاحين... إلااوستين ،في الارجح .فقد عاد الى البيت منهكاً ، متعباً ، خائر القوى الى حّد يفوق الحصر والوصف . وكانت هذه اول مرة يجد فيهانفسه هكذا .بيد انه ادرك هو نفسه سبب ذلك . فاذا كان التعب سابقاً ، وحتى يوم امس ،يمكن ان يطاق ،بل وسائغاً لذيذاً أحياناً ! لأنه يمنح النفس نوعاً من الراحة ،فان تعب اليوم هذا قد تراكم -بالضبط -من التوتر النفسي المفرط والجهد الفكري المضني .كانت تطن في اذنيه طيلة النصف الثاني من النهار ، طنيناً ملحاً صرخة كوستيوشكا :«ولكنه يسمع كل شيء !» .نفر اوستين من كوستيوشكا وأبغضه ،بسبب امعانه الكريه المقوت هذا في التدقيق المتسم بالمكر والدهاء ،وبسبب حقده الذي سعى جهده في ان يصبه -منتقماً على الناس وكأنه يفعل ذلك نكاية وثأراً لركّته وخرقه ، لافلاسه وتهافته ، ولاخفاقه في حياته الخاصه .«هو اضعف مني وادنى ،لكنّ لماذا اخافه واكرهه اذن ،في حين يجب ان أرأف به واصفح عنه ؟ لماذا يملك هو الحق في ان يظن بي الظنون ، في حين يجب علي ان احترس منه وحسب ؟ -راح اوستين يسأل نفسه . - اوبريديخين هذا...لقد تفادى الحرب ،تملص منها بسهولة ،وهو هنا ، في ما وراء الجبهة ، ليس ميالاً الى العمل كما يجب .انه لايقوم بثلث ما

يقع على عاتقي من اشغال . لكن ، انظر اليه :يمشي على الارض مشية الديك .كل شيء عنده سلس وسهل مستساغ ، يضحك ، يأكل وينام هنيئاً مريئاً ،يعيش بحرية وعلانية ،كالاتقياء الصالحين !.... اما انا فلست بقادر على ان افعل فعله غير مسموح لي بذلك ، ممنوع !.. ومع انني في دخيلة نفسي ، ضمن حدود ذاتي ،لست أسوأ من بريديخين وكوستيوشكا ، لست دنيئاً ولامتكاسلاً ولانفعياً اما الحياء والضمير فعندي منهما اكثر مما لديهما ولكن هيا تكتمْ ، احترس ، راقب بحذر وحرص كلَّ خطوة من خطواتك ، وكل نظرة من نظراتك !... أهو عقاب ، ياترى ، نزل علي لأنني قد تصرفت بشؤوني تصرف صاحب الشأن ذاته ؟...

راح اوستين يخطو في الشارع المظلم ، منزلقاً في برك صغيرة من مياه الامطارفوثبت من بين شفتيه الفاظ سباب ولعنات سرعان ماقمعت قبل ان تبلغ حروفها الاخيرة وتجاه داره ، اصطدم في الظلام بجارته نيوركا كوريوشينا التي كانت عائدة ، كما يبدو ، من زريبة البقر . شعر بالرغبة في ان يتوقف ، ان يقول للمرأة كلمة لطيفة طيبة ، أن يعتذر لها عما بدر منه سابقاً من معاملة خشنه تجاهها . إلاانه لم يفعل سوى ان نظر نظرة خاطفة الى وجهها المدور اللطيف ذي الملامح الحزينة التي لاتكاد تتميز في العتمة ، ثم تجاوزها ماراً على مقربة منها

فكر حالاً، وقد انتابه شعور بعدم الرضا عن نفسه، فكر في ان نيوركا وكوستيوشكا وبريديخين ، وعلى العموم ، جميع الناس الذين يعيشون الى جواره ، يثيرون في نفسه الاسى ، لا لأنهم يتصرفون تصرفاً قبيحاً ، بل بسبب ذلك القدر الذي يقتربون به ، حدسياً وبدون قصد ، من سرّ

إثمه .«أجل ، ان السوء بالنسبة لي هو ليس في الناس ، وانما فيَّ أنــا بالذات . اكدح الى مايقرب من حد الهلاك ، أسعى لأجل خير الجميـع ، لكن يجب علي ان أعيش كلص ،كأي جاسوس .حتى في الفراش ،جنب زوجتي ، أحرس نفسي محاذرة من أن أغمغم اوأتمتم في المنام .أسمع اصوات طفليَّ ، إلاانني لااستطيــع ان ارد عليهما أخشى ان أبعث الفرحة في قلبيهما . لقد أتى الخوف على المسرة كلهــا أحقاً ان في داخلي كل هذا القدر الهائل من الرعب ،ياترى ؟»

ـ ١٥ ـ

في الجزء الداخلي من مدخل الدار ، خلع اوستين حذاءه ثم اخذ ينشر فوق الرف الخشبي سترته الندية من عرق ، فمس بكتفه اكورديونه القديم المعلق في الزاوية الى جوار زنبيل للبذور . كان الاكورديون ، وهو يتدلى وحيداً وعارياً من ايما غطاء ، وقد ربط بحبل معقود الى مسمار مثبت في الجدار ...، كان اشبه بأداة منزلية مستهلكة انتهت الحاجة اليها فبقيت تنتظر اوان يتذكرونها ويرمون بها خارجاً . واخر مرة اخذ فيها اوستين اكورديونه بيديه كانت في احد الايام التي اعقبت عودته من الجبهة . اراد ان يسلي فروسيا والصغيرين ، لكنه لم يقو على ذلك . لم يتمكن من ان يعزف شيئاً وهو لا يسمع الاصوات اخذت انامله تجري على الازرار كالمعتاد ، غير انها بدت وكأنها تخبط خبط عشواء . وبدلاً من الموسيقا المتوافقة المتوائمة ، قاء الاكورديون ضرباً من الفوضى الموسيقية المنافية للعقل والذوق ...حتى ان فروسيا انفجرت ضاحكة ، اول الامر ، لكنها شرعت تبكي فيما بعد انتزعت منه الاكوردين ووضعته في مكانه الى ان تحين ـ ان شاء الله ـ اوقات افضل

وفي هذه اللحظة يقف اوستين ناظراً الى الآلة الموسيقية بحزن يشوبه شعور بالذنب ، وكأنه ينظر الى بيت صغير متواضع كان في يوم ما مبهجاً وباشاً للجميع ، لكنه بقي ، في الوقت الحاضر ، مهملاً مهجوراً بسبب

خطأ ارتكبه هو

نزع الاكورديون المترب من المسمار ومسح ، مبتسماً ، على دساتين ازراره البيض . «لقد نسيت بالمرة ، انقطعت الصلة ... ثم ان يدي الان هما اشبه بمطرقتين أبمقدورهما ان تعزفا ؟! لعلني استطيع ، فانا الان اميز الاصوات

صفقت الباب ، دخلت الدار فروسيا . حفز وجهها القلق الكئيب اوستين ونبهه . «يبدو انها اليوم ايضاً قد بكت وناحت كثيراً مع النساء الاخريات في زريبة البقر . يعني ثمة من استلم نبأ باستشهاد قريب له» ، ـ فكر اوستين

ـ والدك حالته سيئة . استدعيت الموظفة الصحية ... يستحسن ان تذهب اليه ريثما أعد العشاء . ـ تحدثت فروسيا ، مردفة كلماتها بالاشارات التي كان من المخجل والعسير على اوستين أن يتحملها

اعاد الاكورديون الى مكانه ، تأهب على عجل ثم خرج الى الشارع كان يسير مسرع الخطىء ، فاذا به يسمع من نوافذ النادي الصغير ، الذي مرّ امامه ، تراجيع تراتيل منطلقة من حناجر بتولية ناعمة فتية ونغمات اوتار ترسلها البالالايكا[18] بصوت خافت ضئيل «لو كان الغناء جارياً على انغام الاكورديون لجاء اكثر براعة ، ـ فكر اوستين . ـ آه ، ما اروع ما كان يجري هنا فيما مضى !.. اما الان فلقد عقدت فمي وفم الاكورديون ايضاً ...»

مرة اخرى تدرك النوبة كوزما دانيلوفيتش وتلزمه الفراش . كان راقداً في الركن المضيء من غرفة الضيوف ، فوق سرير مرتفع نظيف

---

١٨ ـ البالالايكا : آلة موسيقية وترية روسية ، شبيهة بالقيثار

ولعل مجيء الموظفة الصحية هو الذي ساقه الى ان يترك مكان نـومه المعتاد ويضطجع على هذا السرير المهجور الذي بدا وكأنه مستقر في متحف . لقد هيجت روائح العقـاقير الطبيـة ، التي خلفتها المـوظفة الصحية وراءها ، شعور الجزع والحنان لدى اوستين تجاه والده . دنا من السرير وجلس على المقعد الخشبي . كان يطرق الاسماع ، قادماً من المطبخ ، ضجيج الـرحى الحجريـة الصغيرة التي كانت تطحن بها فارفارا الحنطة

ـ اوصد الباب يا اوستين انها تصخب ، عليها اللعنـة !.. أكان ضرورياً لها ان تثير برحاها كل هذه الضوضاء في مثل هذا الوقت ، اما كان بامكانها تأجيل ذلك ؟! ـ شرع العجوز يصرخ بصوت متهيج واهن ضجر ... اقتربت فارفارا من الباب قبل ان يدركها اوستين ثم انهالت بالشتائم ، اثناء ما كانت تهم باغلاقها

ـ ها ، ماذا جرى ؟ لماذا تنبح يا كوزما ؟ ما الذي ينقصك ، ها ؟

ـ كفاك هأهأة ، يا انت !.. لم تكدني[19] الى عربـة خيل ، فلمـاذا تهأهئين هكذا كالحصان ؟ ـ صاح بها كوزما دانيلوفيتش ، مكشـراً تكشيرة حانقة وقد ظهر عليه النصب والاعياء ، ثم حول وجهه المتقع المضنى صوب اوستين يسأله العون والحنان . ما كان العجوز ليرغب في ان يعتل ، لم يكن يحب ذلك ، لم يطقه ... وانه الان يرى نفسه مذنباً امام الجميع ويرى الجميع مذنبين امامه ـ هذه هي حالي يا بني !.. لست راغبـاً في مثل هـذه الحيـاة ، لكن ليس ثمـة من يخلصني من عذابها !ـ بعد ان سكت متجهماً بعض الوقت ، بدأ يتشكى ويأسف

---

١٩ ـ كذن الحصان الى العربة : قرنه او شده اليها .

لحاله .ـ تسألني ماذا يوجعك ؟ انه الشيء نفسه مرض الذبحة الصدرية ، هـل تسمع ؟ ولعلهـا هي التي ستوصلني الى القبـر عما قريب ...اذا داهمتني مرة اخرى مثل هذه المداهمة فلسوف تعصرني عصراً ... قبل ايام وقعت تحت وابل من المطر فتبللت واخذت برداً كنت اقوم بحراسة المستودعات وزرائب البقر اثناء الليل ، فهل تعتقد ان ذلك سهل يسير ؟

بعدئذ ، اخذ كوزمـا دانيلوڤيتش يســأل ابنه عن الصبيـين ، عز العمل ، عن كل ما هو واضح بالنسبة اليه دونما حاجة الى اجوبة

ـ لمـاذا انت ساكت ؟ هـل عقد لسـانك من جـديد ؟.. بـربك ، لا تفزعني !.. ها انني اتكلم مع ان الذبحة الصدريـة تخنقني خنقاً .ـ ضيق كوزما دانيلوڤيتش عينيه الزائفتي النظرات ، باحثاً عن شيء ما في ابنه الصارم القسمات

ـلدي ، يا ابي ، ذ ... ذبحتي الصدرية الخاصة ... تـ ... تضغط علي بثقلها ،ـ همس اوستين بانفعال ، وضرب صدره بقبضة يده :ـ ها هي ذي عـ عندي ها هنا ... تـ ... تمص من د ... دمي في كل لحظة من حـ ... حياتي افكر فيها

نظر كوزما دانيلوڤيتش الى ولده معبساً تغير شيء ما في وجهـه ، امتقع لونه ، حل القلق المرهق محل الوهن الموجع

ـولكن لا تفكر ،ـ تكلم باهتمام فاتر .ـ انس كل شيء ، اقطع الصلة هاك مثلاً اغاپوف ميخائيل الذي عاد فاقداً احدى ساقيـه استسلم للحزن ردحاً من الزمن ، قضى بعض الوقت يعاكس ويشاكس ، ثم تعود بعدئذ والف أسيت ام لم تأسَ ، الامر سواء ، لن تنبت لك سـاق

جديدة

- لكنه هكذا بـ ... بساق واحدة اسهل له مـ   مني وانا بـ
بساقين . لـو كان جـ   جـرب ان يـ   يظلع وهـو بـ ... بقدمـين
سليمتـين !.. انه لمن الصعب جـ   جـداً ان تـ   تضلـل نفسـه
والناس

- والنتيجة هي ان ميشكا الان مقعد ، اعرج الى الابـد . اما انت
فعليك ... يا لك ، ما عليك الا ان تتحامل على نفسك وتصبر ، تنتظـر
شهراً واحداً فقط ، على علاته !.. هل تستمع الى الراديو ؟ ان الامور
تسير على الجبهات سيراً حسناً وموفقاً   يطاردون الالمان في كل مكان
وها هي قواتنا تتوغل خارج حدودنا . لن يحل الشتاء الا وتكون الحرب
قد شارفت نهايتها . فما لك طامحاً بالذهاب الى هناك ، كالعاري الذي
يجري ساعياً الى الحمام ؟! ان الامور تتدبر هناك كما يجب دونما حاجة
الى وجودك

- انا اريد الامور بـ ... بالطريقة الانسانية . كالاخرين ... بـ
بما يـ ... يريح الضمير لكي

- وهل انت بلا ضمير يا ترى ؟... انك لم تـرَ فروسيـا كيف كانت
تنحب ، قبل ايام قلائل ، راثية لحالك . تقول انك تحطم نفسك ، تهلكها
تماماً بالعمل . وهي تقول ايضاً   اما انه موعود بمكافأة ممتازة او انه
التزم التزاماً شديداً بانجاز عمل كبير لقاء مبلغ جيد ... وانه لا يتذكر ولا
يعرف شيئاً غير ورشته المدخنة المسخمة !... لقد كانت لديه في السابق
ايضاً ، كما يقولون ، رغبة شديدة جداً في العمل . لكن ليس ثمة من
يستطيع ان يدمر نفسه هكذا بالعمل في دار الحكومة سوى المجنون

اما هو ففي كامل عقله ، كما يبدو

ـ حقاً ، كنت أ... أظن أ... أنني سأجد الخلاص في العمل .. ولكن لم يـ ... يتغير شيء .. هذا .. يـ .... يصلح لشخص آخر يـ .. يتلائم مع ط .. طبعه . لكن ليس لي ... انت نفسك ، يا أبي ، كنت د ... دائماً تـ ... تقول في الكذب والبهتان لم نعشْ نحن ، آل د ... ديدوشيف ، أبداً

ـ ها انك دوزنت : الحق ، الباطل ، الضمير ! ولكن انظر الى يديك !ـ رفع كوزما دانيلوفيتش نفسه قليلاً ، مستنداً الى مرفقيه ، بدأ رأسه ، وجهه الملتحي يهتز واهناً فوق الوسادة . وبعد ان القى نظرة على الباب التي كانت تصخب خلفها الطاحونة اليدوية ، ارسل صيحة خافتة

ـ انظر ! ها هوذا ضميرك ، انه بأجمعه هنا ، على راحتيك . دع اي واحد غيرك يشعر بالخجل ، يدعي الضمير ، اما ضميرك انت فيسد مسد خمسة . نعم !

القى كوزما دانيلوفيتش رأسه على المخدة ، وبعد قليل من الانتظار ، واصل كلامه باعياء

ـ طبعك ، كما الاحظ ، شبيه بطبع ابن عمي . هل تتذكر غرينكا ؟... كان فتى عاطفياً للغاية . ومن هنا سبب احتراقه وفشله . لكن ما هي جناية غرينيا ، ما الذي فعله فثارت عليه ثائرتهم ؟! كل ما في الامر هو ان هذا الصبي القاصر العقل قد اشتغل مساعد طباخ مدة ثلاثة اسابيع لدى الاعداء البيض ، مرتكباً بذلك حماقة دفعه الجوع اليها . ثم انهم عثروا في صندوقه على صور متناثرة ظهر فيها الى جانب القوازق ، كانت قد التقطت صدفة ... انتشرت الاقاويل والشائعات حول هذا الامر بعد

انتهاء الحرب الاهلية ، حيث كان كل شيء قد هدأ واستقر . غير ان غرينكا اراد ان يوضح الاشيـاء بمقتضى الحق والضمير ... اراد ان ينزع عن نفسه الاهانة أنىّ لهـذا الارنب المسكين ان يكـون ـ كما ادعوا ـ من انصار البيض اومن العاملين لمصلحة الكولاك[٢٠] ؟! ما هو الا صعلوك بائس من عامة الفلاحين ؛ وكان يعيش في مستوى من الفاقة بحيث انك لا تجد في احد جيبيه سوى الخواء الابدي ، واما في الجيب الاخر فلا شيء اطلاقاً !.. غير انه وقع تحت يد ساخنة غاضبة لا ترحم وكان ان بدأ القصف والقذف وتساقط التهديد والوعيد ... هو نفسه الذي تحدث بصراحة ، أقر بذنبه ... وهو نفسه الذي وضع الانشوطة في عنقه ... هكذا هو الشأن : كن شاة وسرعان ما تظهر الذئاب !...

بدأ يهمهم في صوت كوزما دانيلـوفيتش امتعاض ، ضيمٌ قـديم غضّن وجهه برهة وهو يستعيد بعض الذكريات الثقيلة وصوب نحـو اوستين نظرة محملة بالكدر والجزع وانشغال البال

ـ اجل،ان الاحمق وحده هو من يفتري على نفسه بنفسـه ،ـ تكلم بصرامه ، لكن وجهه سرعان ما تراخى في اللحظة ذاتهـا ، وترقـرقت الدموع متلألئة في عينيه الغائرتين بعيـداً في محجريهمـا . ثم واصل الحديث بصوت متهدج من اثر الشيخوخة :ـ فأرجوك ، يا بني ، ان تسمعني وتطيعني ... دعني ـ بالله عليك !ـ اغادر هذه الحياة هادئاً مطمئناً ، لا تمزق مهجتي ! وافعل بعد ذلك ما تشاء ... لكن اطرح الان الحماقات من رأسك ، لا تنبش ضميرك ، لا تهيج ما في نفسك . اذ لم يحاول احد ان يسبر اغوار ذاتك حتى الان ، ولم يتسلل اليك مراقباً

٢٠ ـ الكولاك : الفلاحون الاغنياء الذين يستثمرون جهد غيرهم .

متفقداً لا يعلم هذا الامر سوانا انت وانا فقط هكذا فلتعش احمد الله ولا تعقد لروحك معرض فرجة او زفة عرس . وهل ثمة من حاجة الى ذلك ؟!... هيا اجلب اسرتك ، اشغلوا الجزء الرئيسي من الدار وعيشوا . اما انا فكثير جداً علي مكان الموقد الحجري والمنامة الخشبية المجاورة له ... تعال غداً لنحرر وثيقة رسمية اكتب لك فيها الدار كلها باسمك . فلتحافظ عليها ، لسوف ينتفع بها اولادك واحفادك ايضاً

ـ شكراً لك ، يا أبتاه متعت بالعافية ...ـ قال اوستين ذلك بامتنان .ـ فقط ... يستحسن بي ، على كلّ ، ان أ أخبر ، في الاقل ، پانكرات ، انه يتفهم

ـ لا تجرؤ !ـ هسَّ كوزما دانيلوڤيتش بصوت خافت حانق وعادت مقلتاه جافيتين صارمتين من جديد .ـ لا تعرض مصيرك للاذى ، يا بني اسمعني والا سيذهب كل شيء هباء انتظر ، في الاقل ، حتى تجتمع اللجنة الطبية . فليقرر الاطباء ما يقررون الاطباء ! فهمت ؟ اما انت فلا تحشر نفسك

ـحـ ... حشرت نفسي في شرك . فممن اخاف ؟!... عـ ... عبثاً القينا الرعب في قـ ... قلوبنا !...ـ نهض اوستين واقفاً ثم سار ، بجوربيه المحبوكين المرقعين ، فوق سجادة الخيش الصغيرة البسيطة وكأنه يعد العدة لأمر ما

ـ حسناً ، حسناً ، هيا ... هات اقتل نفسك واجهز علي ، يا بني !ـ اخذ كوزما دانيلوڤيتش يتكلم بنبرة تحذيرية تحريضية مؤنبة .ـ ولكن ثق بانه لو كان ثبت عليك انك فار من الجندية او انك انسان متبطل كسول لكنت انا اول من يريك عتبة الباب

- ان العمل ليس وسيلة خـ ... خلاص هنا

- انك لبطل مقدام ، يا اوستين ... أتراك لم تحارب بما فيه الكفايه؟ مشتاق ، يعني ، للعودة ثـانية الى هنـاك عجباً لـك !ـ تكلم كوزمـا دانيلوفيتش بصوت واهن وقد اغمض عينيه .ـ أتعتقد انهم سيتركونك ثانية ـ انتِ الألكن المتلعثم ـ تقود مدفعاً ؟! لا ، يا حبيبي ! سيبعثون بك الى صنف التموين ، فهمت ؟ هناك حيث تقشر البطاطس وتصلح احذية الجنود وملابسهم . فاحكم بنفسك اذن ، اين ستكون اكثر نفعاً هنا ام هناك ؟

- ليس لي أ أن أ احكم في هذا ، يا ابتاه . وليس لك

همد الضجيج خلف الباب،فاذا بأوستين،الذي دهمه السكون فجـأة، يتسمر فاغر الفم ... وقد شعر بخزي فاضح للغاية وبانحراف شديد في صحته بسبب توقفه عن الكلام ، وملكه نوع من الشعور بالاشمئزاز الكئيب الممل جراء خوفه من صوته الحقيقي ، مما جعله يلوح بيده في غيظ وضجر ... ثم سار نحو الباب

كان الجو خارج الدار لطيفـا ، هادئاً . السماء الغافية النجوم كانت معلقة ، دونما حراك ، فوق الرؤوس ، كأنها ترهف السمع الى حفيف الاشجار المستغرقة في سباتهـا الليلي ... وقف اوستـين على سقيفـة المدخل ثم راح ، وهو يحس بساقيه وبجسده كله جودة الدم الابوي وأصالته ،راح يطالع في خياله ، يتحسس ذهنياً : جدران الدار المعمولة من جذوع الشجر ، عارضة خشب البلوط التي تسند السقف وتدعمه ، قواعد النوافذ العريضة ، الكمرات[21] الصنوبرية ؛ اي كامل الهيكل

٢١- الكمرات الدعائم (الدعامات)

المتين الجديد للدار الحديثة التشييد التي ستكون منذ نهار الغد ملكاً مسجلاً باسمه ، هو اوستين . لكن الفرحة لم تكن قائمة ، كان ثمة ـ بدلاً منها ـ خواء ، فراغ نفسي فاتر ، ذاو ... بدا جمال الليل في غير مكانه واوانـه . لم يكن متوائمـاً مع المـزاج النفسي والتنغيم الروحي لأوستين

انصرف الى بيته ، عارفـاً انهم ينتظرونـه هناك عـلى العشاء ، ان فروسيا تنصت الى كل خطوة عند عتبة الدار اما هو فيدخـل عليهم مجيباً الاصوات والابتسامات المرحة بأن يلوي فمه ، يصعر خـده ، يقلب اصابعه ، يتمطق بشفتيه ، اي «يتكلم» مع احبائه ، مـع اقرب المقـربين الى قلبـه انه يـراهم كيف يجهدون انفسهم ، يتكيفـون طـامحين الى ان يـوصلوا اليـه ، على اصـابعهم ، جميـع اخبـارهم واهتماماتهم ... ولكن ، هيا ادخل في الحديث ، قل كلمة جوابية ، اعلن عن صـوتك ، يـا اوستـين !... آه ، حبـذا لـو قلت كلمـة واحـدة ! لاستقبلوها ، اذن ، كمعجزة سارة ... ربما !

«آه ، يا أبتي ، انني أسف الان على حالك ، مشفق عليك . لكن ، هيا تماثل الى الشفاء سريعاً لكي ابصق بعدئذ على عروض سيركنا المنحوس هذا كلها» ـ فكر اوستين وهو يسمع كيف كانت تنطلق الى الفضاء ، من احد البيوت الكائنة في الطرف الاخر من القرية ، اصداء حفلة توديعية في وقت متأخر من الليـل ... لقد حملت الاصـداء الى اذنيه أهـازيج الجاستوشكا الممزوجة بضحك وبكاء بأصوات نسائية

«وغداً ايضاً سيجلبون دعوات جديدة لشبان اخرين ... ما يكاد الفتيان يفتحون عيونهم على الحياة حتى تتلقفهم ساحات الوغى ...ـ

تذكر اوستين وجوه الشبان الذين يعرفهم جيداً ، ممن تسلموا صباحاً في مجلس شورى القرية دعوة الى الخدمة العسكرية .ـ غداً ستعول النساء . وما لا تتمنى الاذن سماعه ابداً هو عويل الامهات المريع»

كان يعرف ، كواحد من المقاتلين المجربين ، ديدن الحرب الحتمي والقابل ـ مع ذلك ـ للتعليل والتفسير في كونها نهمة ، تطمع باكثر المشاركين فيها يفاعة وفتوة ، من اولئك الشبان المتحمسين الغيورين دونما حذر ، والباسلين الجريئين لكن بغير مبالاة لقد شاهد وجرب كثيراً ، وهو يعرف انه من الافضل للفتى المقدام ان يغفو سويعة زمنية فائضة من ان يتخندق بشكل اعمق ، من الاسهل له ان يعدو مزهواً تحت وابل الرصاص من ان يدب زاحفاً بصبر وأناة ان المقاتل المحنك المجرب قادر ـ بالموازنة مع الجندي الحديث العهد ـ على ان يظل سالماً آمناً مدة اطول ، حتى ازاء كل ما تحمله الحرب من قسوة عمياء

«لا بأس عساهم يكونون محظوظين ! سوف يعودون .ـ راح اوستين ، وهو يواسي امهات المجندين ويشاركهن عواطفهن ، راح يحاول في الوقت ذاته ان يطمئن نفسه ايضاً ، ان يخمد ما في صدره من سورات الاثم البعيدة تجاه هؤلاء الفتيان المرد الاغرار من ابناء قريته الذين يتوجهون الى جبهات القتال .ـ وكيف اذن ؟ لكل دوره . والا فمن ذا الذي سيكون هناك ؟ ان لم اكن انا ، اذن يجب ان يكونوا هم ...»

عندما كان يغادر دار والده خيل اليه ان ثمة شخصاً ما قد كمن عند البوابة وراح يراقبه . وقف اوستين جامداً في مكانه ، ثم اندفع فجأة الى امام . تحركت سريعاً الى الجانب ظلال ، خفق على الارض وقعُ احذية خفيفة ، ثم سكن كل شيء في ظلام الليل

«اذن ، كانوا يسترقون السمع ، يختلسون النظر !..ـ فكر بتوجس وحذر ، وفي الوقت ذاته بسخط واستياء .ـ وما الذي يختلسـونه يـا ترى ؟!اليس ثمة ورائي ولا امامي امور رديئة او محرمة او مزرية حسناً ، ولكنني اذا كنت قد جرحت روحي ، خدشت قلبي ، زرعت في جسمي دملاً صغيراً ... فان ذلك كله يخصني انا ، هو ملكي ... وانني اعاني منه واتوعك اكثر من الجميع .ولن يعثر عليه احد ،لن ينكشف ما لم اظهره انا بنفسي . ولكن فقط بعد ، بعد ماذا ؟ أبعد الرحيل ثانية الى هناك ، مع هؤلاء الفتيان الاغرار في آن واحد ؟!... لكنني سبق ان كنت هناك ، في تلك الاماكن !... نعم ارتدتها يوم كان هؤلاء يجرون في الدروب حاملين بايديهم مصيدات الطيور ، ويخطبون ودّ الصبـايا ، لاعبـين معهن ادوار العرسـان ... فليجربـوا الان هم ايضاً خـوض المعارك !...ـ راح اوستين يحث خطاه وسط الشارع ، متعثراً بكتل من الطـين الجاف ، ثم اخـذ يفكر بنفـور محتدم ، مفـاجىء ، في هؤلاء المجندين الجدد الذين كان ، قبل قليل ، يشفق عليهم ويشعـر بذنب مبهم امامهم

غير انه سرعان ما ازاح جانباً هذه الافكار والاحاسيس الشريرة ، التي لم تكن قد ولدت في داخله ، بل كما لو انها جاءته من الظلام الذي احتواه مريبةًمسترقاً السمع اليه ومتربصاً به

«وماذا يجرب هؤلاء الفتيان الابرياء ذوو القلوب الطيبـة هناك ؟ـ وعاد يشفق من جديد على اولئك الشبان المجندين . ـ لا اراهم الله شيئاً مما رأيته وابتليت به ...»

من زحمة الذكريات الحالكة الكئيبة الرهيبة ، برزت امامه واحدة

هي من اشدهن وضوحاً واكثرهن تميزاً وظهوراً ... تلكم هي عملية نارو ـ فامينسك العسكرية . كان على بطرية المدفعية ان تطلع الى الاعلى وتحتل فوق المرتفع خطاً على الاتجاه الخطير للدبابات غير ان الالمان اخذوا زمام المبادرة . كان الامر القاضي بمناوشة العدو ومشاغلته من المرتفع قد صدر الى سرية طلاب المدرسة العسكرية الذين وصلوا على الشاحنات مباشرة من موسكو الى منطقة تمركز بطرية المدفعية ... كانوا شباباً نضيرين ، شذبت شعور رؤوسهم باتقان ، يرتدون معاطف قشيبة جديدة وجزماً جديدة ايضاً ، ملمعة كأنها اعدت مخصوصة لحفلة رقص كان شهر اكتوبر قد اطل السماء ترذ ، والجو رطب ندي ، والوحل في كل مكان اخذ طلاب المدرسة العسكرية مواضعهم قرب الاشجار ، جالسين او مضطجعين على الارض مباشرة كان اوستين ينظر اليهم بقلق واهتمام مع حلول الصباح ستغدو المعاطف الجديدة مبتلة وملطخة بالوحل وشعر بالاسف على المعاطف

عند انبلاج النور فتحت البطرية النار على المرتفع ، الا انها سكتت بعد مضي عشر دقائق تقريباً ، وذلك بسبب شحة القذائف المدفعية . لم يكن اطلاق النار سوى عامل مشجع لطلاب المدرسة الحربية ، فهو لم يساعدهم الا قليلاً . فقد تمكنوا من الاستيلاء على المرتفع بوثبة اقتحامية انقضاضية ، ببسالتهم الشبابية ، وبالغزير من دمائهم الزكية ... حرك رجال البطرية مدافعهم الى خط جديد ثم اخذوا بعد ذلك يساعدون طلاب المدرسة الحربية في جمع رفاقهم من القتلى والجرحى على سفح التل الذي احتلوه . شقوا في مكان قريب من الموضع حفرة قائمة الزوايا ، غير بعيدة الغور ، رصوا جثث القتلى في صفوف

متقاربة ، غطوا بأردية من المشمع وجـوههم الشاحبـة المتقعة ذات الملامح الفتية القريبة جداً من وجوه الغلمان الاحداث ، ثم طمروهم بالتراب سريعاً . لقد صعق اوستين وفجع لهذه الخسارة الهائلة التي حدثت ، هكذا في لمح البصر ، امام ناظريه يوم كان ما يزال بعد حديث عهد بالقتال كجندي مهدف في سلاح المدفعية . وراح يراقب ، بشعور من عدم الرضا ومن الغضب المر الحزين ، كيف اخذوا يهيلون التراب بسرعة على القبر الجماعي لشهداء تلك المعركة ، ملاحظاً في هذا التسرع شيئاً من القسوة الرعناء ، على الرغم من انه كان ضرورياً في حينه فالعدو كان يربض على مقربة ويستطيع في اية لحظة ان يحول دون اداء الواجب الاخير تجاه الشهداء

وبالفعل ، فما ان انتهوا من مراسيم الدفن العاجلة حتى اخـذت الطائرات الالمانية تعوي في سماء الهضبة ، ملقية قنابلها بدقة وبحقد دون ان تنال عقاباً ارتج المرتفع متـرنحاً ، بـدأ يتبجس بنافـوراته الطينية التي بدت كثيفة اللزوجـة وشبيهة بكتلـة متحركـة اصابت احدى القذائف القبر الجماعي الطري الندي فـاخرجت بـانفجارهـا الرهيب جثث الموتى ورمت بهـا متناثـرة . عند الغسق ، بعـد انتهاء القصف الجوي وارتداء هجمات جنود المشاة الالمان ، دفنوا ثانية جثث الطلاب الممزقة ، في نفس ذلك القبـر الجماعي المشـوه، وبنفس تلك السرعة المهينة نفوس الاحياء من البشر

بعد ان فرغ اوستـين من عمله ذاك ، تـرك المسحاة الملطخـة دماً ووحلاً ، دنا من بعض الشجيرات ، واصيب بالغثيـان . كان جسـده يرتعش برمته ، واحس كأنه عانى في يوم واحد من عشرة امراض في آن

معاً

اقترب من مدفعه ، جلس على صندوق خال من العتاد وبدأ يبكي ، بصوت خافت ، في الظلام . كان طلاب المدرسة العسكرية يتراءون له واقفين قبالة عينيه المغمضتين ، متوردي الاذان ، مشذبي الشعر تشذيباً متقناً ، في معاطف جديدة ، وجزمات ملمعة تلميعة عيد . حاول ان يتذكر وجوه الذين استشهدوا واصواتهم ، ان يعي جميع التفاصيل المتصلة بحياتهم تلك المفرطة القصر في بطرية المدفعية وعلى وجه البسيطة ، ان يحتفظ بهم جميعاً في ذاكرته لأجل احد ما ... وسرعان ما وجد نفسه يلتقي في عالم الخيال بأمهات الفتيان الشهداء ، متمثلاً كل واحدة منهن على انفراد

«ولكن لا بأس ... توكلوا ، متعكم الله برحلة ميمونة !...ـ اخذ اوستين يلقي على السنة الامهات عبارات النصح والتمنيات الطيبة التي تقال عند التوديع .ـ المهم هو ان تظلوا على قيد الحياة ، اما البقية فسهلة ، تتصلح

تسللت بمحاذاة السياج اجسام بشرية ، وحين انتشلتها من غيهب الظلام اشعة الضوء الساقطة من احدى النوافذ ، تبين ان هناك فتى وفتاة . «هما يتبادلان القبل في آخر امسية لهما معاً . اما انا فأخيفهما دون ان اقصد ذلك ... ها هما يرفرفان مثل حمامتين ، متنقلين من مصطبة الى اخرى ... صرت حتى نفسي اخيفها ، وعما قريب سوف اجفل من ظلي ايضاً ...» ،ـ فكر اوستين عابساً متجهماً ، واحس ان شيئاً ما يكبس في صدره حد الانكماش ، من فرط شعوره بوحدته الغريبة الشاذة وسط الناس

- ١٦ -

دخل اوستين منزله الذي بدا له ، تحت الضياء الـواهن الضئيل المنبعث من السراج الزيتي العتيق ، واطئاً وضيقاً بالقياس الى مسكن والده الفسيح . غيران الوضع داخل الغرفة كان عامراً ، مريحاً ...كان الولدان نائمين اقتربت فروسيـا من مائـدة الطعام وهي في قميص النوم ، هيأت العشاء بسرعة وجلست قبـالة زوجهـا الممعن في صمته ووجومه ، ابتسمت له ناعسة الطرف ، ثم عادت الى فراشها

تناول اوستين طعامه بتثاقل وفتور ، مصيخاً بسمعه لشيء ما بعيد مما كان خارج حدود الدار ، خارج نطاق الصمت المخيم بسكينته على المنزل ، فراح يتخيل عويل النسوة ونحيبهن المفجع الذي يمزق الافئدة ويفتت الاكباد انه نحيب الامهات الذي سينطلق غداة غد ، لحظة تشييعهن فلذات قلوبهن من المجندين الجدد

أطفأ القنديل بلغ ، متعثراً في الظلام ، سرير النوم وأوى بلطف وهدوء الى فراشه ، مضطجعاً لصق جسد فروسيا الدافىء المتـ اخي مرت براحتها على خده الخشن خشونة ورق الصنفرة وشرعت تهمس بما يشبه الصلاة

ـ ها انك قد اجهدت نفسك في العمل ، لم يبق من وجنتيـك سوى عظميهما الناتئين . آه ، يا الهي

مسك اوستين يدها الدافئة ، أراحها على صدره ، غطاها براحة كفه الثقيلة واغمض عينيه مطمئناً مستريحاً

«لو همست في اذنها مرة واحدة !... أبي قد وثقت به ، أمنته على سري . وهذه ، انها زوجتي !... آه ، لو تقاسمنا الاثم معاً !.. فلعل ذلك سيخفف عني ...» فكر اوستين تفكيراً معقولاً وتذكر حكاية يريديخين المزعجة السمجة عن فروسيا ، تلك الحكاية التي صارت زوجته بعدها احب في نظره واغلى ، بل وانها قد سمت عليه ، في شكل من الاشكال ، بذاتيتها ، باستقلالية شخصيتها الانثوية التي ازدادت رهافة وحدة في ايام الحرب ، وبصرامتها وجديتها .ـ كليمة واحدة لو همست بها همساً !.. لا تستطيع ؟ لقد التصقت مصاً بهذه الحياة ، تنقصك العزيمة للتملص منها . وذلك شبيه باقحامك نفسك ، من جديد ، في هجوم تحت وابل من الرصاص

... فجأة انجلى امامه ، صافياً صفاء شديداً ، وجه المقاتل المدفعي الكثيف الحاجبين كاميل ميرغاليف ، ذلك الجندي المقدام المقحام والحاذق اللبيب أوان اشتداد وطيس المعركة ، كاميل الذي سرعان ما يغدو ، بعد خمود نارها ، انساناً آخر ، ساهياً شارداً ، لا يدرك مما حوله شيئاً حين يلجأ مستنداً الى جدار الخندق او المخبأ ، مقرفصاً ، يكتب رسالة الى خطيبته نورية ... كان ذات مرة جالساً ينظم درره البليغة اليها والدخان يتصاعد من تحته . «أولست انت الذي تحترق ، يا كاميل ؟ـ هزه بعض رفاقه الرابضين معه في الخندق .ـ ألا يبدو ان معطفك ينبعث منه الدخان ؟»ـ «ولماذا معطفي ؟ انها روحي تحترق» ،ـ تمتم كاميل دون ان يتوقف عن الكتابة . لكنه جفل عندما سمع ضحكات

جنود البطرية :قلب احدهم جيب معطفه الداخن فسقط منه على الارض عقب سيكارة ما زال مشتعلاً ،كان كاميل قد دسه في جيبه سهواً ...وفي الصباح ، حينما اندفعت دبابات العدو ـ فجأة وباعداد كبيرة ـ نحو البطرية ، عاد ميرغالييف ، في لمح البصر ، نشيطاً حثيثاً ولبقاً دقيقاً قاتل بجسارة وبسالة وكأنه يحاول في ذلك كله ان ينتزع من العدو سويعة هدوء واستراحة يكتب خلالها رسالة باشة الى حبيبته النائية نورية كان كاميل ، وهو يبدع رسالة ما الى خطيبته ، عادة ما يحرك شفتيه قليلاً ، يبتسم ابتسامة ناعمة رقيقة ، كأن ليس امامه قصاصة ورق صغيرة دقيقة ، بل نوّارة مدهشة عجيبة !... اين هو الان كاميل ؟ أحيّ يرزق ؟... وقائد الكتيبة أستاشكوف ، «الاب الروحي» ذو الاربعين عاماً لأسرة البطرية ؟ لقد كان ديدنه ، كخبير اثري وشغيل متحفي سابق ، ان يسعى ابداً الى اعادة ترتيب الامور في ذاته كان يحب الهدوء والسكينة . لم يكن يأمر رجال المدفعية الذين هم تحت قيادته ، بل يرجوهم إلا انه كان ، في الوقت ذاته ، رجلاً صلباً سيد قراراته ...يأمرك دونما ضغط او اجبار ،لكن بطريقة لا يمكنك معها ان تتقاعس عن تنفيذ امره ، لان ضميرك سيضيق حينئذٍ عليك . وفي تلك المرة ، في معركة أولخوفاتكا ، حين كانت دبابات الالمان على بعد ما يقرب من مئتي خطوة فقط من البطرية ،لم يضطرب استاشكوف ولم يكثر من الحركة . كان يسير منحنياً انحناءة خفيفة ، من مدفع الى اخر ، باعثاً النشاط والجرأة في الجميع بوجهه الصارم الرصين ، معيداً العبارات التي قالها قبيل المعركة «ارجوكم ، ايها الشباب ، ان تثبتوا ارجوكم ... واذا اقتضى الامر فاطلب منكم ، راجياً ، ان تموتوا

ولكن اثبتوا !»

اين هـو الان استـاشكـوف ؟ هـل يعلم من امـري شيئـاً ، هـل يتذكرني ؟.. وبطريتنا ؟ ليتني القي عليها نظرة !.. ترى كيف هي الان هناك ؟... لقد مشيناها عبر المستنقعات الموحلة ، خلال الزوابع الثلجية المتدفقة ... السوداء من فرط الحقد ومن سناج البارود ، المتسممة من نتانة اثار الحرائق ... مشيناها شتاءاً وصيفاً ، في الاجواء الخريفية الملبدة بالغيوم وفي الدروب الموحلات ابان الربيع الماكر البهجة ... تحت اشعة الشمس المشرقة كنا نحرس السماء بعيوننا ومتوننا وبما يعترينا من خوف مألوف ، وفي ضوء القمر كنا ، ونحن لا نكاد نغمض عيوننا ، نتجمد في قعر خندقنا ، ملتصقين بالارض العارية المكشوفة ... وعند اشتداد الحر كان يلفنا الانهاك والضنى فنتلهف لقطرة ماء ... ونتباله فرحاً من رائحة معاطفنا وجوأربنا ولفائف ارجلنا ، المبللة التي جففت على لهيب النار . ومن الانفاس الحبيبة الغالية المنبعثة عن قطع الخبز المتجمدة التي سرعان ما تنتعش ويعود اليها الدفء بين اسناننا ، ومن المذاق المقرف لمشروب الفودكا البارد الحديدي الطعم ... في كل لحظة كان يمكن ان نقع تحت غائلة الرصاص ، ان نحترق ، ان نتمزق ارباً ونتناثر قطعاً ... ولكن لا بأس ، جاءت سليمة !... لقد حطمنا العـدو متكاتفين ، كنا نعرف سبيلنـا . اما الان فليس امـامي سوى حـرب واحدة ، هي ان ادخل في صراع مرير مع نفسي !...

ضم اوستين يد زوجته الى صدره ثم راح ، بعد ان طرح جانباً تلك الافكار التي تخز النفس وتصدع الرأس ، راح يمخر عائماً في نومه كان محموماً ، اخذت تجري في ظهره تيارات هواء رطبة . كان مدثراً

بشيء ما دافىء ثم شرع يخطو بدون توقف ، لكن بعسر وقسر ، الى امام نحو جبل الجمل ذي السنامين ، الذي برز من خلال الضباب البارد شعر ـ عبر متنه المتجمد الخدر وعبر قذاله ـ ببرودة نظرات الحشد الذي كان يسير خلفه ، مرافقاً وخافراً كان في الحشد ثمة وجوه كثيرة مألوفة لديه ، لكنها كانت تعبر جميعها عن صرامة خرساء مبهمة وعن ادانة وشجب وكان في مقدمة الحشد كل من قائد الكتيبة استاشكوف ، المقاتل المدفعي ميرغالييف ، ثم طلاب المدرسة الحربية يسيرون كلهم بتأن وبطء ، لكن بثبات وحزم ، حاسري الرؤوس ، في معاطف مفكوكة الازرار وبعدهم سار اطباء المستشفى العسكري وممرضاته ، بأرديتهم الطبية البيضاء ، يتبعهم بالتعاقب كل من قاطني قرية كليوچوفكا ستيپان ، ڤاسينين ، فيودوربريديخين نيوركاكوريوشينا ، كوزماد انيلوڤيتش ، كوستيوشكا المحاسب ميخائيل أغاپوف ، متوكئاً على عكازتيه ، وجميع الاحياء والاموات الذين عرفهم ـ هو اوستين ـ، رآهم التقاهم يوماً ما في حياته اجتمعوا كلهم هنا لأجله ، بسببه ... وعلى وجوههم كتب القرار الذي اتخذ سلفاً بشأن مصيره المحتوم . كانت الوجوه صارمة ثقيلة ، حالكة مستغلقة ، لا رحمة فيها ولا غفران . وكلما ارتقى خطوات أعلى وابعد في الجبل بدت النظرات الموجهة صوبه اشد صرامة واصعب مراساً . كان الناس سائرين ليقتلوه ، ولديهم الحق في ذلك في اعالي الفضاء كانت تحلق ، متتابعة ، دقات نواقيس الكنيسة ذات الرنين الخافت الحزين الذي أربكته الريح . وفي ورشة الحدادة ، التي ظهرت مكشوفة بكاملها وكأنها من زجاج ، كانت الاصوات تولد وتنمو باطراد ... عند السندان

يقف پانكرات مرتدياً قميصاً ابيض اللون نظيفاً ويلوح برتابة وايقاع كرقاص الساعة تماماً ، يلوح ويضرب بمطرقته ، مجرياً حساباً ما مشؤوماً ، ينذر بسوء العاقبة المقتربة حثيثاً . توقف اوستين فوق اعلى ذروة في الجبل ليس ثمة من مكان اخر يواصل السير اليه المنحدر الشمالي قد انقطع انهار بهوة هاوية شاقولية لا قرار لها ، كسماء غبراء منتكسة مقلوبة كان يهب من الهوة هواء بارد مشبع برطوبة الارض ، فراح اوستين يتدثر مرة اخرى بدثار ما . لكن سرعان ما اقترب منه اثنان من طلاب المدرسة الحربية ثم شرعا ، بعد ان امالا وجهه نحو الحشد ، يخلعان عنه ملابسه كانت الملابس كثيرة فنزعاها عنه كما تنزع الاوراق عن رأس كرنبة «انظر اليه كيف تواري ، لكن لا بأس ...» ـ تمتم احد الطالبين «سنبلغ الغاية ، بأية حال من الاحوال ...» ـ تكلم الطالب الاخر بحزم وبلغا المنتهى ، جرداه من جميع ملابسه الخارجية فوقف اوستين امام الحشد بملابسه الداخلية واحس كأنه طفل رضيع استل من مهده الدافيء وجرد من قماطه في جو زمهريري قارص

خرج من بين الحشد ستيپان ڤاسينين ، استل من جيبه ورقة واخذ يقرأ . لم يسمع اوستين اية كلمة مما قرُيء ، لكنه عرف بالضبط انهم يتلون عليه قرار الادانة اراد ان يصرخ ، ان يبين للجميع ، ان يسألهم لماذا تجري الامور هكذا ؟! ولماذا يقف الجميع ساكتين ، الا من كلمة يقولها اي من الحاضرين ؟! قفوا ، ايها الناس !... انتظروا !..

في غضون ذلك انتهى ڤاسينين من القراءة ولوح ، آمراً ، بيده

الوحيدة ، فتقدم نحو اوستين اثنان من الجنود المجهولين ، رفعا بندقيتيهما ، إلا ان اوستين هوى ساقطاً على ظهره في اللجة الثلجية ، دون ان ينتظر اطلاق النار . ولم يدرك ، وهو يتهاوى ، أكان يفكر ام انه بدأ يصرخ فعلاً «ما ... آ ... ما!» ، لكنه سرعان ما وجد نفسه وقد امسكت به يدان مجهولتان

- أوستين ، اوستين !.. ما بك ؟.. أهو انت الذي ناداني ؟ أنت ؟- هزته فروسيا وصرخت

التزم الصمت . ولم تعرف فروسيا ، وهي لا ترى في العتمة وجهه ، ماذا حل به . فراحت تخضه ثانية وتسأله

- اوستين ، كنت الان تغمغم ، تصرخ ، تنطق بعض الكلمات ، أليس كذلك ؟ أم انني كنت أحلم

وثبت فروسيا من فوق اوستين ، منزلقة عن السرير ، عثرت على السراج واوقدته بيد مرتعشة . راحت تطالع ، متوجسة ، اركان الغرفة المعتمة وكأنها تفتش عن ذلك الشبح الذي كان قبل لحظات في مكان ما من الغرفة ، كان يسمع يحس ولكن ها انه قد تلاشى ، ذاب في شبه الظلام الناعس المخيم على الدار

تناولت القنديل ، دنت من السرير ، وبعد ان اضاءت به وجه اوستين ، دارت على مهل ، مشوشة المظهر ، حاملة بيدها القنديل ، في الدار ، ملقية نظرات ارتياب على الجدران والنوافذ والسقوف

- افّ لكِ ، عليكِ اللعنة !... انفرجت الباب ، وها هو تيار الهواء يتسرب الى اسفل ...- تكلمت بصوت خافت ، دون ان توجه الحديث الى احد ، مبعدة بصوتها عن نفسها ذلك الرعب الخرافي الذي كان يوسوس

في صدرها

اغلقت الباب باحكام ، أطفأت السراج وعادت الى الفراش ، لائمة نفسها ان قد أثارت في الدار ضجة ... «انى له ان يتكلم اذا كان مسلوب اللسان ؟!.. أما نحن فليس لنا سوى ان نتخيل ، وان نحلم لا أبداً ... ما دام الله قد قضى على اللسان

-١٧-

ذات يوم ، طلب مدير المزرعة التعاونية من اوستين ان يـذهب الى زريبة البقر ، لترميم سطحها الذي بدأ ينحرف ويتداعى

عند الظهيرة وصلت حلابات البقر الى هناك . راحت تدور بالقرب من فروسيا بعض الصبايا اللـواتي يعرفهن اوستـين ناستيـا أغاپـوڤا والصبيتـان الصهباوان ، كـزهرتي عبـاد الشمس ، جينيا وأوليـا المهجرتان من مدينة پسكوف . كان عمر الاولى ثماني سنوات والثانية تسع سنوات . ولم يظهر والداهما حتى ذلك الحين ، كما هو الشأن مع بعض الـلاجئين من الاحـداث الاخرين الـذين يعيشـون في قـريـة كليوچوڤكا

- أوهو ، فروسيا ، أرى انك قد وجدت عنك بديلة ، أليس كذلك ؟- هتفت مشجعة ، واحدة من الحلابات

- نعم ، صحيح ... فأنا بحاجة الى اسبوعين ألعب فيهما مع هذا الذي ...-ردت فروسيا في شيء من البهجة القابلة للعذر والتبرير ، وعلى محياها سيماء الحيرة والغيرة وهي تحجب بالمحلاب بطنها المدور الذي وتر رداءها ومطه مطاً شديداً (منذ ما يقرب من عامين ونساء القـرية متوقفات عن وضع المواليد الجديدة) -يعني ، اريد ان أرغّب ناستينكا في بقيراتنا السمر الداكنات . هي الان تستطيع ان تحلب البقر .. لما تعد

صغيرة ، فقد نجحت الى الصف السادس

عندما بدأ الحلب توقف اوستين عن الضرب بمطرقته ، ونزل من سطح السقيفة وذهب الى فروسيا التي كانت واقفة مع الصبايا قرب البقرة الضخمة الرقشاء ذات العينين السوداوين البلوريتين النديتين ابتسمت له فروسيا ، دون ان تتوقف عن حديثها مع ناستيا

- ليزونيا بقرة وديعة ، طيبة كريمة حين تحلبينها تشعرين بالارتياح والرضا اما تلك التي عند السياج فاسمها چاروديكا انها نشيطة ماكرة وعنيدة مشاكسة تحب دائماً ان تفغر فاها على رغيف الغير ، تلحس اولاً علف جارتها ثم تأكل بعد ذلك علفها اسمعي ، ناستينكا ، لا تذهبي اليها في البداية فارغة اليدين !... لن تتمكني عندئذ من حلبها . هكذا علمتني أمي في سني شبابي لا تربتي على البهيمة براحة كفك بل بحفنة من دقيقك وهاكم انظروا زفيوزدوچكا ، تلك التي تشرب الماء من المشرب انها في اول نتاجها وتحتاج الى معاملة لطيفة بوجه خاص ... ها ، لقد رأتني فبدأت ترسل خوارها ، هي الحبيبة العزيزة . هل تسمعنها كيف تخور ؟ انها تنادي وتتشكى . هيا بنا ، يا بنات ، نذهب اليها لنحليها اولاً ، هي الغالية

روماشكا ، زوريانكا ، روغوليا ، كراسوليا[٢٢] ... وشعر اوستين ،

---

٢٢ ـ هذه الاسماء التي اطلقت على البقرات لها دلالاتها المعنوية ... وقد جاءت ـ في معظمها بصيغة التصغير لغرض التمليح والتحبيب .. وفي ادناه ما يقابل كلاً من هذه الاسماء باللغة العربية

ليزونيا (اللاحسة ـ لحوسة) ، چاروديكا (الساحرة ـ سحورة) ، زفيوزدوچكا (نجيمة) ، روماشكا (اقحوانة) ، زوريانكا (الثاقبة ـ ثقوبة) ، رغوليا (ام القرون) كراسوليا (مليحة)

وهو يسمع كيف تذكر فروسيا ، بحنان وملاطفة ، اسماء البقرات الفتيات ....، شعر فجأة بالغبطة تجاه تلك الحيوانات ، وبغيرة مبهجة تجاه زوجته .«لشدما تبدو ، هي نفسها ، مشتاقة الى كلمة حنان ألاطفها بها !»

ولكنه«هو الاخر»نادراً ما يسمع الان اسمه يدور على شفتيها ! انها تبخل كثيراً وتقتر جداً في استعمال الكلمات عندما تخاطبه ، مستعيضة عنها ـ مثله هو ـ بالاشارات والايماءات ...لقد حاولت بجميع الوسائل ان تظهر نفسها في مستواه ، كما لو انها لم تكن لترغب في ان تكدره بتفوقها وافضليتها . وبدافع الرأفة به كانت تبدو امامه وفي صحبته وكأن قد اصيبت تدريجياً ، هي الاخرى ايضاً ، بالصمم والبكم . اللهم الا في لحظات التقارب الليلي بينهما ، حيث كانت تناديه احياناً باسمه ـ كما في السابق ـ أوستيوشا ، وتهمس في العتمة إما له او لنفسها ، ببعض كلمات الحنان الرقيق المتشتتة المتقطعة . غير ان هذه الكلمات كانت تثقل عليه اكثر مما تريحه

جلست فروسيا ، بحذاقتها المألوفة التي بدأ يلوح عليها الان ذلك التأني المحبب الذي يميز النساء الحاملات عادة ، جلست الى جوار البقرة ومسحت ضرعها بقطعة من القماش . ربت اوستين على كتف زوجته واراد ان يذهب ، الا ان حديث الصبايا قد أوقفه

ـ ولكن ، لا تخافا ! اخذت ناستيا تطمئن الصبيتين الصهباوين جينيا وأوليا ، اللتين تسمرتا هلعاً وسط البهائم المختلفة الالوان ، التي انافت عليهما ، كالكتل الصخرية ، من كل جانب. فالبقرة كالبشر ، يفهم كل شيء . سوى ان هناك فرقاً واحداً فقط بينهما ، هو ان البقر لا يملك

القابلية على النطق . لكن هذا ليس بالامر المخيف ... فالعم اوستين هو ايضاً ليست عنده الان هذه القابلية ، ومع ذلك فلا بأس

- هذا افضل له أغيظيه كيفما تشائين ، اشتميه .. فلن يسمعك ولن يرد عليك - غبطت اوستين احدى الصبيتين الصهباوين التي غدا لونها الساطع - كما يبدو - مادة للحديث بين الصبيان في قرية كليوچوفكا

- لا ، هذا ليس جيداً له ، ابدت الصبية الصهباء الثانية اعتراضها . فهو لا يعرف كيف تخور زڤيوزدوچكا ، وكيف تضحك الخالة فروسيا

حدقت الصبايا بنوع من الفضول الكئيب الى وجه اوستين من اسفل ... اما هو فقد وقف - لأمر ما - ازاءهن بكتفيه الهابطتين هبوطاً صاغراً ، كما لو انه يفسح لهن المجال بان يملين النظر منه وكأنهن امام اعجوبة من الاعاجيب . بيد انه لم يعد يواصل الانصات ، ابعد من ذلك ، الى حديث الصبايا ، استدار استدارة حادة مفاجئة ثم انصرف - متحاشياً البقرات - لمواصلة عمله

- ١٨ -

في شهر نوفمبر ، استلم اوستين اعلاماً بالحضور الى مقر اللجنة العسكرية . وفي اليوم نفسه غادر الى مركز المنطقة . لقد جعله هذا الاستدعاء السابق لاوانه يرص الاذنيه ، يكون حذراً متيقظاً ، لان لجنة اعادة النظر في قضايا المعوقين يجب ان تعقد جلستها الخاصة به في شهر شباط . فلأي غرض ، اذن ، يطلبون اليه الحضور الى مركز المنطقة عاجلاً ؟ ثم ، لماذا الى اللجنة العسكرية بالذات ، وليس الى جهة اخرى سواها ؟!

وفجأة تشبثت افكاره بالمحاسب كوستيوشكا «لعل الذي ثرثر هو انت ، هنا ؟ أتريد ان تلوث سمعتي ، أن تشهر بي ؟ هاك ، اقرض بأسنانك !..لن يكون الامر كما تريد . أنا بنفسي سأفعلها ، هل فهمت ؟ بنفسي ، وليس بالوشاية ، بنفسي سوف أقر بذنبي اما دون ذلك ، فحتى وان احرقتني بالنار فلن اقول شيئاً ، لن اسلم بعاري ، لن اقر عينيك ، ايها الاخرق اللئيم ، ياذا الساق المشوهة العرجاء

- هـا ، ديخ !..إ ... إجـري ، حبابتي !- صـاح ، مشجعاً نفسـه ، بالفرس التي كانت تجر العربة ، ولم يعقه احد هنا ، في البرية الخالية من البشر ، عن ان يبتهج ابتهاجاً حاراً بصوته وبسمعه

في مقر اللجنة العسكرية ابرز للضابط الخافر ورقة الاستدعاء . قاده

الملازم الأوزبكي الاسمر الوجه ، ذو الساق الظالعة ظلوعاً شديداً قاده عبر ممر ضيق الى عمق المبنى ... بغتة ، اخذت تتساقط من عل ضروب عديدة ومختلفة من الطسوت والسطول والدلاء والقدور ، محدثة دوياً ولعلعة ورنيناً ... ارتد الملازم ، واثباً ونظر نظرة سريعة الى اوستين الذي راح يواصل السير بثبات ورباطة جأش

ـ آه من عاملة النظافة ، هذه الخالة كلاقا !... انها تكدس دائماً طناجرها[23] في هذا المكان !ـ صبَّ الملازم لعناته وهو يرفع احد الاواني من فوق الارض

وصل اوستين الى نهاية الدهليز . ومن هناك اخذ يراقب الملازم ويترصده بتشبث وعناد «لقد نصبت ، ايها الاعرج ، شركاً خبيثاً خبث الفجل البري !... انك انت الذي فزعت منه اما انا فانظر ، لم يرفّ لي جفن . انا أصم ابكم ... هل فهمت ؟ انني لا اسمع شيئاً ، حتى وان قذفت علي القنابل بدل السطول وخير لك ان تنتهي من هذه الاختبارات والفحوص ... وما دام الامر كذلك فلن تحصلوا مني على اي شيء» ـ

كانت تتوهج في داخل اوستين ، دائماً كرامة متهجدة متيقظة ، لكنها مجروحة بيده هو ذاته . لقد أحس احساساً حاداً للغاية ، وعلى غرار ما صار يحدث له مراراً عديدة في الايام الاخيرة ، احس بأن هناك خطراً يدهمه فاستعد للدفاع بصلابة وعناد عن نفسه

لم يكن ثمة من احد في الغرفة التي بلغاها معاً ، لكن اصواتاً كانت

---

٢٣ ـ الطناجر : القدور (مفردها : طنجرة)

تسمع خلف باب الغرفة المجاورة انصرف الملازم وهو يزُي أوستين مصطبة قرب النافذة : اجلس هنا وانتظر حتى يستدعوك

خرج من الغرفة ضابط اشيب ذو نظرة صارمة ، في وسطه نطاق مسلح ابتسم بتحفظ وبتشاؤم ، كما لاح لأوستين . وبعد ان حياه مصافحاً طلب منه ان يتبعه «ايـه ، بدأتْ !...ـ خفق قلب اوسبتين خفقاناً مضطرباً ، الا انه قمع خوفه بسرعة وراح يخطو وراء الضابط دونما وجل .ـ لكن لا بأس ! لن يكون هناك ما هو اشد هولاً مما ذقت وجربت لن يوجد ما هو أفظع ، قطعاً ... لقد استطعت ان احجب بجسمي كلاً من موسكو وستالينغراد وكورسك ، ايها الرفيق الرائد ..»

بعد مضي نصف ساعة كان اوستين يهتز كـرة اخرى فـوق عربة النقل ، عائداً من مركز المنطقة الى قريته . راح ينظر ، بعينين معتكرتين من فرح مدمع مقلق ، الى ما حوله من بقاع ممتدة بكآبة وامتهان على مستوى واحد من التسطيح ، الى اكداس القش الجديد ، والى الحقل الذي بدأ ، بعد ان جرد من غلاله ، موحشاً تلقي عليه الريح مبعثرة فوق جذاماته[٢٤] غرباناً شباعاً صامتة واجمة ، كأنها قطع من اوراق سود صغيرة ...واحس اوستين انه مذنب وخزيان جداً فيما اتاه من خداع وتدليس

في اللجنة العسكرية قلدوه نوط «الشجاعة» لبسالته واقدامه . وكان اوستين قد رشح لنيل الوسام منذ شهر تموز عام ثلاثة واربعين ، وقد نسي هذا الامر . وها ان النوط قد ادركه بعد مضي اكثر من عام فابهجه واقلقه حد الدمع «كان من الافضل والاكثر ملاءمة لو استلمته في

---

٢٤ ـ الجذامات : بقايا سيقان (او اعواد) الغلال المحصودة

حينه ، يوم كنت هناك في الجبهة ، وليس الان . كان لي حينذاك صدر آخر ، غير هياب»

في الطريق المواجه كانت تصادفه احياناً قوافل من العربات مشحونة بأكياس الحبوب . كانت وجوه النسوة والاحداث الجالسين في العربات متعبة ، لكنها مزهوة . وهذا الزهو انما اضفته عليهم تلك الاكياس التي كانوا ينقلونها وذلك الصريف اللذيذ الثقيل الذي كانت تحدثه عجلات العربات وكأنها تئن تحت اعباء تلك الاشياء الثمينة التي كانت تحملها ... كان كل شيء في الطبيعة يعبر عن مهابة هادئة ان الحقول والسماوات قد التمست ، تكريماً للبشر على جهدهم وكدحهم وغيرتهم ...، التمست الصمت والسكينة ، غارسة هدوء الخريف في حركات الناس وسكناتهم وفي أحاسيسهم وافكارهم ... وان الشعور بهذه الراحة والطمأنينة في دوامة الهموم والشواغل العسيرة ابان الصيف القروي ، كان من الامور المألوفة جيداً بالنسبة لأوستين ، وكان يتلقاها دائماً كشيء ممتع وملائم . وانه الآن يملك الحق في مثل هذه الراحة ، هذا المتنفس الخريفي في العمل ، لأنه لم يرحم نفسه ابداً ايام الحش والحصاد ، لم يوفر لها اية راحة اطلاقاً . لقد ارهقها واعياها تماماً في سدّ وترميم الشقوق والفتوق اللامتناهية ، المتفاقمة على المزرعة التعاونية التي ندر فيها الناس . كان اوستين هو الحصّاد والحدّاد في آن معاً ، وكان الناس يعتبرونه انساناً قوياً مكيناً عظيم الصبر والتحمل وقد غطى العمل عنده على جميع مشاكل الذات التي كانت تشتد لديه ـ كداء لا دواء له ـ في اوقات الفراغ بالذات . وهذه الوحدة الصامتة التي استغرقت ساعتين في الطريق المتدفقة على امتداد الحقول الخريفية

الموحشة ، التي بدت وكأن قد فترت فيها ، مخصوصاً ، جميع الالوان والاصوات ، لكيلا يشغل الانسان عن التأمل والتفكير ، هذه الوحدة قد ارهقت اوستين وأثقلت كاهله كل الاثقال . واخذت فرحته بالنوط تخبو وتتضاءل شيئاً فشيئاً ، لان الوسام لم يستطع ان يحرره من معاناته النفسية الرئيسية

صار ينتفض وقد اخذ منه الاذى الذاتي المعتمل في داخله مأخذه ، ثم راح يصرخ فجأة بصوت واهن وكأنه يوجه كلامه الى شخص ما ، مستدلاً ومبرهناً «قلت لك لا تلمسه ، هذا الوسام !.. لقد دفعت عنه ثمناً باهظاً من دمي ، لقد نلته بعد قتال دموي مميت ان وساماً كهذا خالد الى ابد الابدين

لف عنان الفرس على قبضة يده وأوى الى مفرش من القش مؤملاً ان ينسى ، ان يستسلم الى سنة قصيرة من النوم غير ان مقلتيه ظلتا تنظران ، دون ان يرف لهما جفن ، الى الطريق التي راحت سنابك الفرس تذرعها بكلال واعياء ... سار بالعربة طويلاً على هذا المنوال من ذهول السبات المشوب بالقلق . ثم وقف بغتة على ركبتيه ، ضرب كفل الفرس بالعنان وشرع يصرخ مخيفاً نفسه والفرس معاً

ـ هيا اجري ، أ ... أيتها الشقراء ! لا حاجة بـ ... بنا إ ... إلى الرقاد والشجن . عـ ... عندنا الان عيد !... لوكنا فـ ... في البطرية لعينا من زمانٍ سـ ... سطلاً بكامله من الكحول أ ... أما هنا ... فيا أنشوطة التفي عـ ... على رقبتي !... ليت الشيطان يـ ... يـأخذني إ ... إلى جواره !...

شرعت الفرس تجري بخطوات واسعة اما اوستين فقد بدأ يغني

بضراوة ، بصـوت خشنٍ عالٍ وبكـل ما في صـدره المجهد والمتكمش صمتاً ، من قوة

ـ اصطبغ القمر بـ ... بلون أرجواني

امواج البحر أنا شـ ....شاهدتها

أوقف العربة قليلاً قبل ان يدخل قريته ، بدأ يدخن مفكراً في امر ما ثم فك ، من قلبة سترته ، وسامة الذي راح يلمع تحت اشعـة شمس الاصيل لمعاناً ساطعاً ووضعه في علبته الصغيرة المغلفة

قرب دار اوستين كان يقف كوزما دانيلوفيتش منتظراً على احر من الجمر أوبة ولده . وحين رآه مقبلاً خف مندفعاً لاستقباله

ـ لقد ضاع بصري من كثرة التحديق يا اوستين منذ اول الغداء وانا واقف هنا انتظر مترصداً ... يا الهي !.. إيه ، ما وراءك ؟.. لماذا استدعوك ؟ وكيف سارت الامور ؟ـ بـدأ كوزمـا دانيلوفيتش يهمس همساً مرتعشاً وهو يتشبث بالعربة

ـ نـ ... نوطاً قلدوني ـ ردّ اوستين بهدوء وبنبرة لا تخلو من مباهاة واعتزاز ، وهو يوقف العربة امام الدار

ـ دعك من المشاكسة الان ، هيا أنا أسألك جاداً قلبي يقطر دماً ، وانت تهزل

ـ لست هازلاً . هاك انظر إ ... إليه ... إ إنه النوط حقاً ـ اخرج اوستين العلبة الصغيرة من جيبه وفتحها ـ أ ... أنظر ، ما أ ... أجمله من نوط !..فـ ... في الجبهة لم يلحقوا أ ... أن يقلدوني إ ... إياه فـ فلحقني إ إلى هنا

نظر العجوز الى الوسام بفرحة يشوبها خوف ، مرّ عليـه بأنـامله

الخشنة وشرع يهمس

ـ انظر كيف قاتلت بشجاعة ، بحيث اصبحت الاوسمة تتبعك حتى عقر دارك !..

ـ في المساء تـ ... تعال ، يا أبي . وسأدعو اناساً اخرين . سنجلس نـ ... نثرثر بعض الوقت ، نـ .. نغسل الوسام .نـ .. نشرب نخبه فلقد كان الحصاد جـ ... جيداً هذا الموسم ، ثـ ... ثم الوسام هـا هو ... سوف نـ ... نـروّح عن انفسنا قليـلاً ، سوف نـ ... نغني سئمت العيش صـ ... صامتاً طوال الوقت ، نـ ... نفسي تريد بعض الراحة

نظر كوزما دانيلوفيتش الى ولده بتثاقل ، نظرته الى امرىء مريض اذا لم تقدم له يد المساعدة فلربما تدركه الازمة او النوبة

ـ انك تستطيع ان تفرح وتبتهج في اي وقت تشاء . وليست المسرة كلها في هذا الوسام ... ها ان سيمكا غروليوف عنده اوسمة اكثر منك ولكن ، ما الفائدة ؟ منذ خمسة اشهر ـ اسمع !ـ خرمت الشظايا صدره تخريماً لا سبيل الان الى ترقيعه ، لن يرتم أبداً . ان سيمكا يذوي كالعشب في قبو معتم . لن يطول به الاجل اكثر من سنتين

بقيا صامتين بعض الوقت

ـ اسمع ، يا اوستين . الفرس لا تحررها من عدتها ، بل توجه فوراً لجلب اثاثك . سوف نقوم بنقل كل شيء قبل حلول المساء .

القى اوستين نظرة مقطبة عابسة على وجـه ابيه الشـاحب ، ذي البشرة الشفافة السقيمة ، ثم اشاح عنه متأملاً

ـ أترى ان بيتي غير لائق ،.. أم انك تريدني ان اموت عـاجلاً ؟...

تكلم ، يا بني . لماذا أنت ساكت ؟ ان الدار هي الان ملكك بالـوثائق والمستندات . بامكانك ان تسمـح لي بالعيش معـك ، وانت حرّ في ان تقصيني متى ما تشاء ! ،

ومن جديد لفهما الصمت حيناً من الوقت

ـ يـوم السبت يدعـو مديـر ادارة المزرعـة التعاونيـة الجميع الى النادي ..كان حاصل الحبوب جيداً وغزيراً . سوف يكرم البعض وانت من ضمنهم ،كما سمعت ....ـتكلم كوزما دانيلوفيتش ، متقنفذاً من اثر الرياح الباردة

«لن يطول النَّفس بوالدي كثيراً . يريدني ان احافظ عليه ... كأبن له ، بحكم وشيجة الرحم» ـ فكر اوستين وهو ينظر الى والده العجوز

ـ الاجتمـاع يعقده فـاسينين في النـادي . سيدور الحـديث حول الغلال ، حول الجبهة ، حول جميع القضايا الدولية . المحاضر ارسلوه من مركز المنطقة ان الحرب ، هل تسمع ، تشرف على نهايتها . لقد فاتك الوقت في تقديم العون الى الجبهة ـ كانت تنبعث من صوت كوزما دانيلوفيتش ثقة السيد رب الدار ـ ايه ، هل يطول بنا الوقوف هكـذا ونحن نقشعر في الهواء البارد ؟! هيا أدر العربة الحمـولة الاولى ستكون للاشياء الاكثر ثقلاً : الصناديق واسرة النوم وما إلى ذلك ... اما الافرشة والاواني فيمكن نقلها على الايـدي ، بالتـدريج فيمـا بعد فلنذهب !... يا أوستيوشا ، كفاك تفكيراً . ها هي ذي الشمس بدأت تغرب ، هيا نسرع . صعد كوزما دانيلوفيتش الى العربة ، وبعـد ان سحب الاعنّة زعق بالحصان فأخذت العربة تتحرك

استطاعوا ، وكأنهم كانوا يلعبون ويهزلون ، ان يشحنوا العربـة

الاولى ، ثم اردفوها بنقل عربة ثانية   واذ بالــدار قد امست مقفــرة خالية ،والنوافذ والابواب متفجعة جزعة في وحشة الظلام والفراغ التي لفت الدار بعد برحها ساكنوها ... على حين ازداد منزل الوالد العجوز ديدوشيف سعة ورحابة وهو يستقبل افراد اسرة الابن التي عجت الدار برنين صخبهم وضجيجهم المحبب   وانغمر الجميع في حركة دائبة حتى ساعة متأخرة من الليل ، يسحبون الاثاث والامتعة ويصفّونها موزعين ومرتبين كل شيء ، بعد ان وضعوه في مكانه المناسب   واراد اوستين ان تشغل اسرته غرفة المدخل الواسعة الفسيحة ، لكن والده كان له رأي آخر ، افضل

ـ انكم هنا لستم نزلاء مستأجرين ، بل اصحاب الدار   فلكم ان تشغلــوا ركن الصدارة   هيــا الى الغرفــة الاساسيــة في المنزل ، الى المنظرة

بعد ان فرغوا من وضع كل شيء في مكانه ، وتعليق ما امكن تعليقه على الجدران ، مسحت فروسيا ارضية المنزل وبسطت في وسطه السجادة البسيطة ذات الصنع اليدوي المنزلي ، التي سرعان ما راح الصبيان يتشقلبان عليها لاعبين لعبة «دويرة مويرة»   غير ان زعيق الصبيين وضحكهما وضجيجهما بــدا منغصاً عــلى العزبــاء قارقــارا هدوءهــا ووحدتها   لذلك وجدتها تجمع ، في صبيحة اليوم التالي ، حاجياتهــا وامتعتها وتبرح مغادرة الى دار اوستين الخالية التي كانت في انتظارها

- ١٩ -

اثناء فترة ما بعد الغداء ، شاهد أوستين ، وهو خارج من الورشة ليدخن سيكارة في الهواء الطلق ، شاهد على الطريق الزراعي زوجين من الثيران يجران بالحبال شاحنة نقل كبيرة من طراز «ZIS- 5».كانت الثيران والشاحنة تقترب من الورشة لاحظ اوستين ان ستيپان ڤاسينين كان منبطحاً على جناح الحافلة ومعتمداً على مرفقه وفي يده سوط يلوّح به ، وأن نيورا كوريوشينا كانت جالسة في الكابينة خلف عجلة القيادة

توقف الركب وسط الشارع ، مستديراً باتجاه ورشة الحدادة وسرعان ما اندفع من هنا وهناك ؛ من وراء الاسيجة ذات الاغصان المجدولة ومن خلف الابواب المختلفة ، اندفع الصبيان ملتفين حول الشاحنة ملتصقين بها من كل جانب ، داخلين في جوفها المخرق بفعل شظايا القذائف ،راكبين على اجنحتها الصفيحية المجعدة التي لم يترك الرصاص فيها وفي الزجاجة الامامية موضعاً إلا اخترقه اختراقاً

وجاءت النسوة ايضاً يتفرجن بفضول وحب استطلاع على شاحنة «الزيس» كما توقف عندها الحارس العجوز كوزما دانيلوفيتش ،وسكرتير مجلس شورى القرية سيمون غروليوف

- اية سيارة هذه التي لا تستطيع ان تسحب حتى نفسها ؟! قالت ،

مستغربة ، احدى العجائز ، وهي تتفحص الشاحنة بعمش

ـ سوف تسحب ، ياجدتي . ولسوف ترين اي سحب ! ـ اجاب فاسينين بصوت عال وبحيوية ....، واثباً من سلم الشاحنة ، فاتحاً ـ بصريفٍ ـ باب الكابينة التي لوحتها الشمس تلويحاً .ثم راح يقدم ، باحتفاء ، نيوركا كوريوشينا . ـ هاكم الربة والربانـة المنتظرة لهـذه الحافلة الحسناء !... سوى ان ظاهرها قد اعطب في المعارك الحربية ، لكن لا بأس ، هذه أمور طفيفة الجوف سوف نستبدله ، الغطـاء سنرممه ونرقعه ، صنـدوق نقل الحـركة وكـذا المحرك سـوف يقوم الحدادون بتصليحهما لنا

نظر فاسينين باتجاه الورشة ، رأى اوستين ولـوح له بيـده . وفي غضون ذلك اثارت سيارة البيكاب المشحونة بالقش ضجيجاً مصحوباً بصريف خافت أطل من الكابينة بريديخين ، فرمـل ونظر ، دون ان يخرج من الحافلة ، الى شاحنة الزيس من اسفلها الى اعلاهـا نظرة مستخفة متقززة نافرة

ـ أحقاً انكم تأملون في ان تبعثوا الحياة في هذه القراضة المحطمة ؟ ـ قهقه عالياً ، ادار مفتاح التشغيل وتحرك مواصلاً السير بالبيكاب

ـ اين عثرتم عليها يا ترى ؟

ـ سأل كوزما دانيلوفيتش وهو يتفحص الجانب المهشم قطعاً ، من جوف الشاحنة

ـ حصلت عليها ، بعد الحاح ، من الجنود العاملين خارج خطوط الجبهة ، في المحطة ـ وضح فاسينين وعلى شفتيه ابتسامة بهيجة ـ قلت لهم : ترى هل يكلفكم شيئاً ان تقدموا هذه الحافلة المشوهة الكسيحة

هدية للمزرعة التعاونية ؟.. انكم ، في كل الاحوال ، سوف تصهرونها الى معدن

ـ لا بـاس بها من كسيحـة !... تحـدث بفخـر واعتـزاز سيميـون غروليوف . يبدو ان الشاحنة قد راقته منذ النظرة الاولى مباشرة ـ إن هذه «الزيسة» ستقوم وحدها ، بعد اصلاح عطبها ، مقام نصف وسائل النقل بالعربات التي تجرها الحيوانات في مزرعتنا التعاونية !...

ـ حسناً ، وأخذ مسؤول التجهيزات يغمز لي ، متسائلاً يعني هل من وليمة تقيمونها ؟ـ واصل ڤاسينين حديثه . فأجبته : طبعاً ، وكيف لا . تفضلوا بما تريدون ، ڤودكا ، صالو[٢٥] ، زبدة ؟ ويسألني بدهشة واستغراب : أحقاً ان مزرعتكم التعاونية غنية الى هذا الحد ؟! فأجيبه اغنياء نحن جداً ، طير واحد لسبعة اكواخ !... إيه ؟... وادرك مسؤول التجهيزات ذاك فوراً ، اي اثرياء نحن ونسي أمر الوليمة إياها . لكنه نظـر الى نيوشـا ، ثم سأل «لمن تعـود هذه ؟» قلت لـه لمـزرعتنـا التعاونية إنها سائقة جرارة «هكذا اذن ؟! كل هذا وتتظاهر بالفقر والمسكنة ، ايها المدير الهمام !.. أنا ، بوجود امثال هاته الحليوات ، استطيع ان اصنع المعجزات !» باختصار ، لقد سجل حافلة الزيس باسمي ، قائلاً : خذها واذا انهارت في الطريق فلا تذكرنا بسوء !... لن تكون ثمة داهية دهياء

سرّ مدير ادارة المزرعة التعاونية باقتناء الحافلة سرور صبي ، وبادر في الحال الى ادخالها في حيز العمل

ـ لقـد وفقت حتى في الحصول عـلى بعض قطع الغيـار والادوات

---

٢٥ ـ صالو : شحم ، وَدَك

الاحتياطية من هنا وهناك في مركز المنطقة اما الان فان الامر بيد اوستين !ـ التفت نحو الحداد ، ملوحاً اليه بيده .ـ أعلم انك الان وحدك ، بدون صاحبك ان پانكرات قد لازم الفراش ثانية غير انني سأبعث اليك من يساعدك . وانا نفسي سأبذل جهدي ايضاً

ـ وانا الاخرى ليس ورائي في الوقت الحاضر شغل كثير .ـ تكلمت ، وجلة ، نيوراكوريوشينا

ـ نحن في هذه الايام بحاجة ماسة جداً الى مثل هذه الشاحنة ذات الحمولة الثقيلة !ـ وشخط ڤاسينين ، اثناء حديثه ، حنجرته براحة يده اشارة الى الكثرة والتفاقم .ـ ويجب السعي الى جعلها جاهزة للعمل والجري ، جريان الدم من الانف !...

ـ ولسوف يجعلها حتماً ما عليك ، يا ستيپان ، سوى ان ترمي على عاتقه اعمالاً اكثر ، لكي يقلل من معاناته المتأتية من كثرة تفكيره في الحماقات والامور الطائشة ...ـ تكلم كوزما دانيلوڤيتش بلهجة تتسم بالحدة والخشونة بعض الشيء ، مما جعل اوستين يجفل من كلمات والده هذه وينظر في عينيه نظرة مليئة بالاستفسار المشوب بالحذر الشديد.بعد ذلك اقترب صامتاً من الحافلة ، مسك الثورين الاماميين من لجام القنب وقادهما خلفه نحو الورشة وسار كل من مدير ادارة المزرعة التعاونية وكوزما دانيلوفيتش جنباً لجنب ، على مقربة منه

ـ الاحظ ان اوستين يمشي ، في المدة الاخيرة ، مطأطىء الرأس .ـ تكلم ڤاسينين وهو يدخن سيكارته

ـ انه يجهد نفسه كثيراً ، يا ستيپان يغوروڤيتش ...يتعذب أوليس هو ذلك الانسان النافع المجدي للمزرعة التعاونية ؟!ـ تحدث كوزما

دانيلوفيتش وهو ينظر الى اوستين ، بصوت مرتفع تصحبه ضحكة ساخرة قارصة ـ ثم ماذا ؟ قد يكون على حق فهل يمكنك ان تتصرف ايها المدير ، من غير ان يكون في تعاونيتك مثل هذا الحداد الماهر ؟ ماذا يحصل ، مثلا ، لو ذهبت عنه الوثاءة واستدعي ثانية الى الجبهة

نظر ڤاسينين مرتبكاً الى اوستين ، سكت قليلاً ثم اجاب ، ميتسماً ابتسامة ساخرة

ـ لكنتُ اعطيته ، عندئذ ، حقاً مضموناً في البقاء حيث هو

ـ هكذا عملت لي من نفسك جنرالاً دفعة واحدة !ـ علق كوزما دانيلوفيتش ضاحكاً

ـ ولم لا انني ، في واقع الحال جنرال المزرعة التعاونية ـ اجاب ڤاسينين مازحاً ثم ضاف ، بعد ان سار بضع خطوات قائلاً ـ نحن الان لا نستطيع ، بغير اوستين ، ان نتحرك من مكاننا لسنا بقادرين على ان نفعل شيئا اجل !هذه هي الحقيقة ارجوك يا دانيليتش ، أن تساعده في جرّ هذه الممتلكات الى الورشة ثم خذا ، بعد ذلك ، الثيران الى الاسطبل حسناً ، تركتكما بخير ايها الرجلان اما انا فعلي ان اسرع الان الى البيدر

ـ انه لأمر مـ مخجل ، مـ ...مقرف لم استطع ان انظر في عينيه ـ اخذ اوستين يتكلم بهمس لاذع ، وهو يتتبع بنظراته خطوات ڤاسينين الذي انصرف مبتعداً

ـ وما الأمر الذي تخجل منه ؟ هل سمعت ما قاله ؟ سيعطيك ضمانة بالبقاء في عملك اذا زال عنك العوق لن يسمح المدير بانصرافك من هنا

لأنك شخص مهم للغاية ، وهو نفسه بحاجة ماسة جداً اليك .ـ صرخ كوزما دانيلوفيتش وقد لاح عليه الغضب

ـ وما حاجتي الى مثل هذه الضمانة ؟!.. انني مـ ... مسرّح بقرار طبي

ـ حسناً ، وما الذي تحتاجه اذن ؟! عش حياتك ما دمت قد اعفيت من المشاركة في الحرب

ـ عش وأمسك عن الكلام ، يـ ... يعني ؟!ـ اضاف اوستين ، بلهجة ساخرة قاسية

ـ حسنـاً ، اذهب ، اذهب ، اذهب !.. أعلن للجميع ، بلغهم بمـا تريد !ـ بدأ كوزما دانيلوفيتش يصرخ ، متلفتاً

ـ و ... ولكن !ـ صاح اوستين ، مسجلاً على نفسه وعلى والده ذنباً جديداً برز فجأة .ـ أ أعلن ؟! أ أبلغ ؟! متى ؟ بعد ان صـ صمت أ أمام الناس شهراً بكاملـه ؟... بماذا عسـاهم ان يـ يفكروا ؟ سيقولون «كان دائماً يـ .. يسمع ويـ يتظـاهر ، لكي يـ ... يظل ماكثاً فـ ... في المؤخرة !» لا ، يا ابتاه ، كان يـ ... يجب الابلاغ مباشرة ، منذ ان بدأت أ ... أتكلم . لقد أ أغفلت ، أ ... أنا بنفسي تلك الفرصة

ـ اذن ، فها أنتذا بنفسك ترى ،ـ تكلم كوزما دانيلـوفيتش بلهجة مسالمة مسترضية .ـ وما الذي قلته انا لك ؟ لقد أغفلت

صمت اوستين بعض الوقت ، فك من الشاحنة عريش العربة مع الثيران ثم نظر الى والده ، وهو يناوله لجام القنب ، نظر اليه في عينيه ـ اول مرة في حياته ـ نظرة غاضبة ، بل وحتى متوعدة

أمسك كوزمادانيلوفيتش بالحبل وبدأ يكثر من الحركة قرب الثيران ، هارعاً الى الانصراف بأسرع ما يمكن عن الورشة ، وعن اوستين

- ٢٠ -

لم يكن الاجتماع الذي عقد في النادي الا مبعث ألم جديد لأوستين وإلا تفجيراً للدمل الكامن في ذاته ، على الرغم من ان كل شيء قد سار ، في الظاهر ، سيراً حسناً وباعثاً على الفرحة لو اراد هو ان يفرح . فقد كان اوستين واحداً من اشخاص جديرين قلائل نالوا مكافأة مجزية قوامها ستة عشر كيلو غراماً من الطحين وخمسة لترات من الكيروسين ونصف سطل من صابون القطران ، مما كان يشكل يومئذ جائزة كبيرة لا يستهان بها ابداً فالصابون والكيروسين نادراً ما كانا يصلان الى القرية ، وكانا يباعان بمقادير طفيفة وضئيلة جداً مثل جرعات الدواء وكان سكان قرية كليوچوفكا يرحلون احياناً الى محطة القطار ليقايضوا الصابون بما يحملون معهم من عسل وقشدة رائبة

غير ان المكافأة الأشد ايلاماً وتمزيقاً والاكثر دمغاً وتقطيعاً بالنسبة لأوستين ، كانت تلك الكلمات التي دوت على شفتي ستيپان ڤاسينين

ـ كيف يعمل اوستين كوزميتش ؟ نحن جميعاً نرى ونعلم ... وعلى الرغم من انه لم يستطع ان يحدثنا ، بأية حال من الاحوال ، عما صنعه في خطوط الجبهة من مآثر بطولية ، الا ان وسامه قد تحدث عن ذلك فمنذ وقت قريب جداً نال أوستين ديدوشيف نوط «الشجاعة» . ذلكم هو أوستيننا ، ايها الرفاق !.. انه معوق ولكن حدثوني ، بربكم ، هل قعد

يوماً او توانى ساعة عن العمل ؟ شكراً لك يا أوستين وانحناءة هامة حتى اديم الارض من جميع افراد مزرعتنا التعاونية

رأى اوستين كيف كان الناس يبتسمون له ، ناظـرين اليه بعطف واحترام فلم يستطع عندها ان يتظاهر ان يتخذ هيئة من لا يسمع لقد شعر ، صراحة ، بالخجل والارتباك واحمر وجهه من كلمات مدير ادارة المزرعة التعاونية ومن الرعاية العامة الشاملة التي احاطته من لدن الجميع حاسا انه هنا انسان زائف كاذب لا يستحق كل هذا الاهتمام كان الناس صادقين وصريحين معه ،اما هو فقد انغلق على ذاته واقفل دونهم لسانه

اعطيت الكلمة لسيميون غروليوف فنهض من مقعده وخطا نحو المنصة الخشبية ، جاراً ساقه اليسرى جراً واهناً ، وقد بدت عليه اثار السقم والضنى والنحول واضحة جدا بدا يتحدث مغالباً بهجانه وضيق نفسه ، عن النصر العاجل على الالمان وراح يهتف في ألم ممض بأسماء الشهداء من ابناء قريته الحبيبة كليوچوڤكا

- ولا تسمحوا أبداً بان ينال الضيم والاذى من ارضنا الغالية مأرباً ان دماءنا ودموعنا سوف تسيل غزيرة لدرء الاساءة عنها انني اتذكر جيداً جميع رفاقنا الذين واريناهم التراب في اديمها الطـاهر انهم محفوظون عندي ها هنا ...ـ وضرب سيميون بيده على صدره

«هوذا الانسان الذي يستحق الحنان والتمجيد حقاً ، اما انا فلا هوذا القتيل حتى الجذر» ،ـ فكر اوستين ثم سار لاستقبال غروليوف الذي كان يرتعش خائر القوى بفعل خطابه الانفجاري المؤثر اسنده اوستين كما يسند جريحاً في ساحة المعركة ، وأجلسه الى جانبه

اعطى فاسينين الكلمة لمقاتل اخر هو فيودور بريديخين الذي راح يمشي نحو المنبر بخطى ثقيلة . وقف قليلاً ، كاشفاً عن وجهه اللامع المسفوع الذي لوحته الشمس ابتسامة الرجل العملي الواثق من نفسه ، المعتد بها ... ثم نظر الى الناس من علٍ الى اسفل نظرة مهيبة واجمة وشرع يتكلم بصوته الخطابي الجهوري المدوي

ـ اراد الفاشست ان يخضعونا عنوة ، لكننا وقفنا كلنا وقفة رجل واحد . ولم تذهب دماؤنا ولا هذه الجراح ،ـ هز بريديخين على المنبر كفه المصابة ،ـ هدراً . وانه لقريب جداً يوم

استمر بريديخين يتكلم كلاماً طويلاً ورتيباً اما اوستين فقد كان جالساً يفكر بسيميون غروليوف وصدره الذي خرقته الشظايا ، وكيف ان سيميون هذا الانسان الواهن العليل كان يتصبب عرقاً ويستنفد ذاته فوق المنبر ، ذلك لانه كان يخرج كل كلمة ينطق بها من روحه ولبه

«اما هذا ، فأي انسان هو ! يلتهب وجهه احمراراً كما الجمر ، بحيث انك تستطيع ان تجفف عليه لفائف ساقيك !.. مثل هذا المخلوق بمقدوره ان يلقي عشر خطب اخرى انه مستعد لان يتحدث ، يهذر نيابة عن جميع من قاتلوا على خطوط الجبهات ، الاحياء منهم والاموات ان صوته وصحته هما فائضان عن الحاجة الى حدّ بعيد !»

مرة اخرى بدأ يتململ في ذات اوستين احساس ثقيل بالنفور من بريديخين وضرب من الحسد المهين نحوه ان بريديخين ، بكل ما فيه من لغو عقيم ورعونة سلوكية وتصرف أهوج في حياته اليومية ، هو

بالموازنة مع أوستين يمتلك ، على كل حال ، وضعاً افضل انه يعيش واضحاً مكشوفاً وسط الناس ، وان تصرفاته واعماله ـ حسنة كانت او رديئة ـ تجري كلها على مرأى من الاخرين ... وما كان اوستين ليرغب في ان يرى بريديخين في داره ، غير انه دعاه ، جاهداً نفسه على مضض للحضور بعد فض الاجتماع الى ضيافته مع غروليوف وفاسينين . وكان كل الذي أتاه اوستين في تلك الامسية مخالفاً لميوله الروحية اراد ان يشرب ، بمناسبة الحادث السار ، على قدم المساواة مع الاخرين ، لكنه اقتصر على كأس واحدة وحسب ، كان بوده ان يبهج ، بـأكورديـونه واغانيه ، رفاق الجبهة من المصابين والمعوقين ... بيد انه جلس صامتاً معقود اللسان ، على حين كان الرجال يقرعـون الكؤوس تلو الكؤوس نخب نوطه وصحته ، ونخب الوئام والالفة والمحبة في مسكنه الجديد

ـ ولكنك ، يا اوستـين ، تبدو غـير مسرور ، أليس كذلـك ؟ـ حدّق سيميون غروليوف ، مخموراً ، في عيني اوستين

ـ ان يكون مسروراً ، طبعاً انه مسرور ،ـ اجاب مدير ادارة المزرعة التعاونية ، نيابة عن اوستـين ،ـ لكن ، انتم انفسكم تدركـون ... ها نحن ذا نثرثر ونضحك ، يستطيع احدنا ان يقول للاخر ما يريد قوله ، أما هو ؟... تراه جالساً معنا ، كما يبدو لك ، غير انه في واقع الحال ، وحيد ، بعيد عنا في صمته الهادىء ، في بكمه الاصم . وحيد فريد ، كـأنه في بيداء مقفرة موحشة ... وهذا ، ايها الاخوة ، امر يحتـاج ايضاً الى مقاومة وقوة احتمال ، الى تمالك نفس ثابتة ، لا تتكسر

ـ ايه ، ان اموري أسوأ ، لكنني عايش كما ترى ان لم يدركني الاجل اليوم فلربما سيأتي غداً . ان فيدكا وحده هو من تنتظره مئة سنة

اخرى من العمر .ـ تحدث غروليـوف سا عـلا متنحنحاً وهـو يشير باصبعه الى فيودور بريديخين

ـ الشجرة اليابسة يطول صريـرها ـ اخـذ بريـديخين يشجـع سيميون وينشطه

نظر كوزمادانيلوفيتش الى بريديخـين نظرة شـزراء ، ومن غير ان يفسح للحديث مجالاً بان يدور حول اوستين وصحته ، توجه بالكلام الى مدير ادارة المزرعة التعاونية

ـ ما هذه اللعينة التي تمصها ؟ الذي اعرفه هو انك لم تكن تدخن أليس كذلك يا يغوريتش

ـ حقاً ، لم اكن ادخن سابقاً لكنني ما ان باشرت ادارة المزرعـة التعاونية حتى غرقت في الدخان.يصادف انني اتمدد ليلاً في فـراشي وافكر من اين وبم أبدأ غداً ؟لن تكون عجينة خبزك سميكة كثيفة ، ما دامت عنابر غلا لك خاوية نظيفة

ـ اوستين !.. مالك حزيناً مهموماً ؟!ـقاطع سيميون بصرخة مخبولة حديث مدير المزرعة التعاونية ، وقد غطت وجهه القاحل المتقلص بقع حمراء .ـ لا ، هيا اشرب بحق وحقيقة ابتسم لنا ابتسامة الابطـال الباسلين

ـ لا تلح عليه ، يا سيميون !. دعه وشأنه.اهدأ رجاء !.. أنسيت كيف كان اوستين قبل الحرب اما الان فهو ليس بقادر على العودة الى ايامه تلك وهذا هو سبب غمه وكربه حسناً ، ايها الرفاق رواد الجبهة ، لقد آن لنا ان نلزم حدودنا أن نتوقف فكل منـا ثمة من ينتظره الان في داره شكراً لكِ يافروسيا ، شكراً لكَ يـا اوستين

افاض ، ممتناً في توجيه الشكر، ستيپان ڤاسينين وهو يتململ ناهضاً من على كرسيه

-ان شئت فأنا مستعد لان انحني راكعاً امامك ، أقف على ركبتي اجلالاً !.. اندس سيميون غروليوف محتضناً اوستين وقد احمر وجهه من ألم . لكن بريد يخين تلقفه نحيفاً ، مثل حدث غرير وراح يقوده ، بل يحمله تقريباً ، الى خارج الدار

أوستين !.. بعد انتهاء الحرب ، يوم تغدو ورشتك غنية بالحديد الوفير ... كلمه يا فروسيا ، وضحي له بأصابعك ، فهمنيه عني !ـ صاح سيميون عند عتبة الدار بصوت مرتفع مخمور ، وقد افلت من بين ذراعي بريد يخين اذا ما أصبحت ورشتنا غنية بحديدها اعمل لي بمطرقتك سياجاً حول قبري لكيلا تسرح المواعز اللعينات فوق لحدي تذكر ، يا أوستين ! سياجاً يصون ضريح العريف امر الجهاز المضاد للطائرات . لكيلا تدوسه المواعز اللعينات

غبّ هذه الامسية بدا أن ثمة شيئاً ما قد انغلق ، انشق نهائياً ، في ذات اوستين لقد أمست الحياة التي كان ينشد لها الخلاص ، دون وعي او قصد منه ، أمست عالة عليه واخذ يضيق بها اكثر فاكثر

- ٢١ -

الى جانب اعمال الحدادة التي اخذت تتناقص تدريجياً قبيل حلول فصل الشتاء ، كان اوستين يدور حول بيوت الارامل وزوجات الجنود المقاتلين في الجبهة ، يرمم الاسيجة والسطوح ويقدم الخدمات الممكنة

وحين بدأت تتناثر البواكير الاولى من الثلوج ،كان اوستين قد انتهى من اعادة تغطية سقف حمام نيوركا كوريوشينا . ولقد قامت بمعاونته معاونة جيدة وجادة في عمله هذا ، غير انها لم تجرؤ في هذه المرة على ان تبتسم او تبش له ، متذكرة - على ما يبدو - أوان اللقاء به في ورشة الحدادة ،يوم صدها عن نفسه صداً فظاً غليظاً

لقد أثابته نيوركا لقاء عمله اليوم بالنقود ، كما لو انه شخص غريب مستأجر ..فحزّ ذلك في نفس اوستين وانقبض صدره انقباضاً كئيباً .رد اليها النقود وخرج من دارها شاعراً بأنه قد أهين اهانة كبيرة . «لقد بعثرت رعباً ، في تلك المرة ، كلّ الرقة التي كان ينبض بها قلب هذه المرأة . فهي الآن ، انظرْ اليها ... لا كلمة رقيقة تقولها لك ، لا نظرة حنان دافئة تطل بها عليك ، كأنها خرساء»

لحقت به نيوركا ، ادركته عند البوابة الخارجية ، امسكت براحة كفه وألصقتها بخدها . وفي اللحظة ذاتها استدارت فجأة وأخذت تجري

مسرعة الى الخلف ،نحو سقيفة الباب «يالها من امرأة !» ـ عبر اوستين عن دهشته وهو يتتبع اثرها بنظراته . وقف قليلاً عند البوابة ، باعد ما بين يديه مستغرباً وعاذراً في آن معاً ، ثم خرج الى الشارع . وقد بدا أنه من غير المناسب تماماً ، بل وليس في محله قطعاً ، أن تقفز الى ذاكرة اوستين عبارات نيوركا القديمة : «ما حاجتي الى الفراش الناعم الوثير إن لم يكن ثمة من رجل يشاركني الرقاد فيه؟! ... في أحلامي اراك ، أقبلك يا أوستينوشكا

سار اوستين وهو يفكر :« في المنام ايضاً ارى بعض الاشياء ، يا نيورا ، ولكن ها ... ما استطعت أن اقدمه من عون قدمته».

في طريقه الى البيت عرج على منزله القديم ، جلس بعض الوقت مع ڤارڤارا ، مستعلماً : هل أعدّتْ المسكن جيداً لاستقبال موسم الشتاء ، أمن مساعدة يقدمها لها؟ «شكراً لك يا اوستين. الدار دافئة وهل تراني بحاجة الى الكثير ؟! قدمت من المخبز ، أوقدت الفرن الحجري واستلقيت على جنبي» ، ـ راحت ڤارڤارا تحدثه بالكلمات والاشارات ، فشعر بالارتياح والرضا أن ليس لدى قريبته ثمة من مظلمة ضده أو احساس بالاستياء منه

أصبحت ڤارڤارا في الايام الاخيرة مرحة هادئة ، معتدلة ـ الى حدّ ما ـ في تصرفاتها . وقد حزر أوستين سبب هذا التحول الذي طرأ عليها . كانت ڤارڤارا ، قبل الحرب ، هي المرأة الوحيدة التي تعيش بانفراد وعزلة في القرية كلها . وكان الناس يأسون لحالها ويلذعونها ، هي العزباء التاعسة المسكينة ، التي ضامها الله . أما في الوقت الحاضر فان الارامل «الوحدانيات» صرن يغطين نصف القرية ، وانها الان تبدو كما لو انها قد

تساوت في كربها وسوء حظها المتمثل بعزوبتها وبغياب سعادتها الانثوية في احضان الرجل البعل ، تساوت مع النساء الاخريات ، فأصبحت الحياة بالنسبة لها أسهل واخف وايسر مما مضى

«كانت تنتظر موتي ، تتمناه ، ـ تذكر اوستين ، بدون رغبة منه ، تذكر وهو يغادر ڤارڤارا ، ما حكاه له والده عنها ـ ان قلب المرأة حين يخلو من حنان الامومة وهمومها يغدو قاسياً عاتياً . لولم أعد من ساحة الحرب حياً لكان من المستعبد والمشكوك فيه ان تشفق ڤارڤارا على فروسيا وترق لولدي الصغيرين . لكانت قد شغلت دونهم المسكن كله ، لا فرق بينها وبين أية تاجرة مرابية ...» ولكن ، لتعض الان على نواجذها ، ولتمسح بوزها أنفخي أنفك يا ڤارڤارا !.. ان يديك الان قصيرتان وستبقى الدار لأطفالي في كل الاحوال ، حتى وان لم اكن موجوداً على قيد الحياة»

تشبث اوستين فجأة ، وهو مستغرق في تفكيره ذاك ، تشبث في لحظة من لحظات التجلي وصحوة العقل بهذه الفكرة الاخيرة التي أوحت اليه بفراق أسرته ومغادرتها ان فكرة الأحبة هذه حملت الى نفسه ارتياحاً مشوباً بالمرارة ، وهونت على ذاته بعض التهوين ، بل ورمت عنها جزءاً من تبعاتها المرهقة الثقيلة .. لن تقف فروسياً عائقاً دون تنفيذ فكرته هذه ، انها ستفهم كل شيء ... لم تكن بينه وبينها في يوم ما اسرار وخبايا أبداً واليوم ايضاً لا يمكن ان تكون . أما سرّه الراهن ، الذي يحمله الان وحده فقط ، فهو سرّ خاص به هو وحده ، سرّ غادر ، مؤذ ، خبيث ... لكنه مؤقت . ولم يكن ثمة من داع لجرّ فروسيا الى حمأته العميقة وايقاعها في شركهِ القاسي . وما كان في استطاعة زوجته ان تعينه في شيء . ولأمسى في الدار ، مقابل ذلك ، معذبان مسهدان اثنان ، وقلبان ملومان اثنان

لماذا ؟!

كان يخيل الى أوستين أحياناً ان فروسيا أشبه بساحرة ، تقرأ في عينيه سره الطالح الخبيث ومعاناته القاسية المكتومة وتريد ان تساعده . كان يلتصق بها كاظماً ورادعاً ، بصعوبة جمة ، تلك الكلمات التي تريد أن تنطلق من صدره ، يلتصق بها موسوساً ـ كالتصاق طفل عليل بصدر امه الحنون ـ والدموع تجول في مقلتيه . وكان احياناً يتسمر مأخوذاً ويجمد كالصنم وراء عمل ، يجلس ذاهلاً مبهوتاً متردداً ، منشغل البال ، لا يعرف ماذا يصنع ، لا يعي ذاته ولا يلاحظ ما يدور حوله . وكانت فروسيا وهي تحاول ان تعيده الى دنيا الواقع وتنتشله من غشيانه المرعب هذا كانت تهزه من كتفيه وتبدأ تنوح وتندب بصوت عال متنبئة بحدوث كارثة ما محتمة وبمجيء بلية ما زاحفة من مكان مجهول

ـ يا الهي ، ترى ما الذي حل بك ، أوستينوشكا؟ اية سويداء ملعونة هذه التي تقرضك وتعذبك ليل نهار ؟ كيف أستطيع ان اصبر نفسي وانا اراك تجف وتذبل سقماً وضنى أمام ناظري ؟! عما قريب ستدرك أباك في نحوله وهزاله . هيا حدثني يا أوستيوشا !.. ألا يكون هذا من عين اصابتك ؟ إذن تعال بنا نذهب الى الجدة أوفسيانيخا ، فلعلها تستطيع ان تخفف عنك ، تنزع منك عين السوء ان تكن متلبسة فيك . اما اذا لم تكن فيك ، فعلام اذن اجهاد النفس هذا او تحطيمها حتى الموت ؟!.. ان كل شيء عندنا على مايرام : لدينا دار جديدة ، الطفلان في صحة جيدة ، المائدة عامرة دائماً بما يكفي ، ونحن ـ الاثنين ـ مازال امامنا متسع من العمر ، نكدح ونعيش بعرق الجبين ، والحرب ها هي ذي تشرف على نهايتها . كل شيء يدعونا الى الحياة .. هات قل لي ، أوستينوشكا ، مابك ؟

اين موضع الداء فيك ؟ تعال ننظر قليلاً ، اية علَقة[٢٦] خبيثه هذه التي تمتص من روحك ، من مهجتك ؟ من ذا الذي دبر لك مثل هذا القصاص ؟!...

« أنا الذي عاقبت نفسي بنفسي . وانا الذي سأجتلي ، ملتهماً كل شيء بدون امتناع » ، ـ فكر اوستين متجهماً ثم ابتسم ، شارد الذهن ، لفروسيا . أما هي فقد اقتنصت في مقلتيه الحائرتين المهمومتين بصيص تدبيرٍ ما ناضجٍ ، مقلقٍ ، منذرٍ بالخطر

---

(٢٦) ـ العلقة (جمعها علق): دودة من الفصيلة العليقة ، تستعمل كعلاج لامتصاص الدم من جسم المريض .

-٢٢-

ذات يوم تأخر أوستين في عمله بالورشة ، ولم يصل الى داره إلا عند عتمة الظلام وقد بدأت تتولد ، حينئذ ، باكورة عاصفة ثلجية صغيرة خفيفة كانت ندف الثلج تدور مسرعة كالدوامة ، متجمعة في جداول صغيرة من رياح ثلجية ضاربة الى البياض ، جارية على مستوى واطىء يكاد يلامس وجه الارض وراحت تتدفق ملتوية كالافعى عبر الطريق الذي بدأ يتجمد ، لكن دون ان يكسو الثلج بعد ... ومن مكان ما في الزقاق ، بلغ السمع نحيب نسائي خافت مكتوم . وفي اللحظة ذاتها تقريباً ، اندفعت خارجة من ناصية الشارع قامة لفتاة شابة مألوفة .. وسرعان ما مرّ من احدى النوافذ خط من ضياء ، كاشفاً عن وجه ساعية البريد تانيا فاسينينا ، التي مرت على عجل بالقرب من اوستين دون ان تلاحظه او تراه ... كانت تنشج ، كامة فمها براحة كفها وقد انحسر رأسها ومال شالها الوبري منحدراً على كتفيها

توقف اوستين ، مصيخاً بسمعه : كان بكاء النسوة وحديثهن يطرق الاذان من عتمة الزقاق . انعطف خلف الركن ورأى : على مقربة من دار كلاڤديا أوسينكوڤا ، في الفسحة المغطاة بطبقة ثلجية خفيفة ، كانت تلوح ضاربة الى السواد ، اجسام نسائية شبيهة بسرب صغير . ومن اعماق المنزل كانت تنطلق ، من وقت لآخر ، عبر الممر الخافت الضياء ، صيحات

نسائية مفجّعة تتفتت لها الأكباد .وكانت النسوة يتبادلن الحديث بشجن وجزع

ـلم يمض نصف عام

ـنعم ، الأب مازال سالماً ، يحارب ،لكنما الابن ... آه ، أوخ

اقترب اوستين ، بلا ارادة ،من الحشد المضاء بنور النافذة الضئيل اسرعت تخطو نحوه واحدة من العجائز وراحت توضح له الامر ، ملوحة بيديها

ـنبأ استشهاد ...كولينكا أوسينكوف ورد اليوم الى القرية ...حملته تانيوشا فاسينينا بنفسها . مسكينة !.. ما أصعب ذلك عليها ، هي العروس !.. أكان مقدراً لها ان تحمل بنفسها نبأ استشهاد خطيبها الحبيب ؟!...وي ، اللهم ابعد المصائب والويلات عنا !

ورسمت العجوز متنهدة ، علامة الصليب . كوليا أوسينكوف ؟!... انتهى ، قتل يعني ؟... ولكنه بالامس فقط بدا أنه جاءنا الى الورشة مودعاً ...كان محلوق الرأس حتى الجلد .كولكا الطويل العنق ،مدّ كفه القوية مصافحاً الواحد منا تلو الآخر ،مدّها اولاً للجد پانكرات ثم له ،هو اوستين ... ومن وراء عِضادة الباب ،كانت الحسناء تاتيانا تتطلع اليه بحياء وخفر

قتل !...

وقف اوستين قرب الحشد أخرس صامتاً وبلا هدف ، ممزقاً مهترئاً حتى العظام من وقع نشيج كلافديا الرهيب ونحيبها الهائل ...ثم اخذ يخطو الى مكان ما ، خاوي النفس عقيمها ، ومكظوماً مُذَلّاً مسحوق الفؤاد ، غير آنس ذاته ولا شاعر بها

راح يدور ، يتقلب في الشارع العاصف بالثلج ، وحين وصل الى البيت لم تستطع ان تثيره ـ بأية حال من الاحوال ـ جميع اسباب الطمأنينة المنزلية المتوافرة فيه : فلا دفء المأوى الحبيب وراحته ، ولا ابتسامة فروسيا واصوات الصبيين المرحة الرنانة كانت بقادرة على أن تؤثر فيه او ان تبعث في نفسه بعض الاحساس بالطمأنينة والهدوء ... جلس ـ دون ان ينزع قبعته وسترته ـ على مقعد خشبي عند مدخل الدار وبدأ يدخن سيكارة ، مثبتاً ناظريه في لوحة الارضية التي امامه . دنت منه فروسيا نزعت القبعة من رأسه ثم وضعت يديها على كتفيه ، طالبة منه ان يغير ملابسه . نظر اليها ، مستبعداً ما تريد ، كما لو انه كان يتعامل مع شخص لا يعرفه ثم أعرض عنها

على مائدة العشاء تبودلت اخبار القرية . بدأ بعدها كوزما د انيلوفيتش يعبر عن قلقه حول كيفية الذهاب الى غابة الحور الرجراج لجلب أغصان الحطب اليابس مادام الثلج قليلاً ، وحول كيفية تدفئة القبو الجديد كان اوستين يستمع الى حديث والده ، غير انه لم يسمع إلا القليل منه

بعد الانتهاء من تناول العشاء خرج ، طارحاً معطفه القصير على كتفيه ، الى سقيفة الباب المغطاة بطبقة رقيقة من الثلج ووقف طويلاً في الظلام . دخن سيكارة ثم قفل عائداً بلا رغبة ، الى داخل المنزل . وعند المدخل تواجه مع كوزما د انيلوفيتش ، فأخلى باحترام السبيل امام والده العجوز

«كلا ، ان أبي لا يتحمل أية مسؤولية . أنا لم استسلم لنصائحه هو ، بل انصعت لنفسي ... كل العفونة والرداءة والنفايات قد شمخت بأنفها وتفرعنت مختالة في ذاتي أنا ، ثم راحت تأمر وتقود على هواها ...»

استعـرض من عتبة الـدار ـ بنظرة مكتئبـة ـ المنزل كلـه . طلب ، بعدئذ ، من ولده پاڤليك ورقة وقلم حبر ، ثم مضى الى الركن الامامي من الغرفة وجلس امام المنضدة . أجرى ، بصورة بطيئة وخرقاء ، يده التي أقلعت منذ زمن عن الكتابة ، أجراها على الورقة . غير انه سرعان ما شطب كل الاسطر التي كتبها ، ممزقاً الورقة اياها ... ثم جلس طويـلاً دونما حراك ، قابضاً كفه على القطع الصغيرة الممزقة ، وكأنه يحاول ان يحل مسألة حسابية عويصة معقدة قد استعصت على الحل

بعد مضي فترة وجيزة امتدت يده بلا عزم نحو الدواة ، وبدأ قلم الحبر المسحوج يصرف مرة أخرى ، بحمية خرقاء ، على الدفتر الصغير الماثل امامه

دخل كوزما دانيلوڤيتش الى الغـرفة ، بعـد ان أوصد البـاب وراءه جيداً ، وراح ينظر ، من خلال منكب ولده ، في الدفتر الصغير استدار أوستين بحدة ، نهض من مكانه ، دس الدفتر في عبّه وخرج من الغرفة ارتـدى ، اثناء سـيره ، معطفـه الفرو وقبعتـه ثم سار تـودعه نظـرات استفهامية من لدن زوجته وولديه ، سار متخطياً عتبة الدار

اشتدت العاصفة الثلجية ، بدأت تحدث صوتاً أشبـه بالنشيـج ، منذرة بأنْ ستحمل أثناء الليل صقيعاً شتائياً حقيقياً

سار أوستين جيئة وذهاباً على طول بيوت القرية . لم تكن به رغبة في العودة الى الدار ، فانعطف معرجاً على الورشة . عثر أثناء دخوله عـلى الفانوس ، أشعل النار ، نزع معطفه الفرو ثم راح ، وهو يضيف بعض الفحم الى الوجاق المستكّن الذي لم يكن قد انطفأ بعد ، راح ينفخ الجمر بالمنفاخ

- ٢٣ -

استمر الصقيع شديداً قارصاً حدَّ اللعنة . وكانت بركة المياه الدائرة حول القرية دوران حدوة حصان ، والمتجمدة منذ شهر نوفمبر مكونة ما يشبه ارضاً زجاجية سميكة منيعة ، كانت هذه البركة قد بدأت تستقبل الاطفال الذين راحوا يتزلقون عليها بمزالج الجليد والعربات الزلاقة الصغيرة وفي شهر ديسمبر اخذت تمر على الجليد المتجمد ، مروراً استطلاعياً حذراً ، طلائع المركبات والحافلات المحملة التي استهانت بالطريق الصيفي الذي كان يمر خلف القرية عبر قنطرة خشبية واهية ثم يتسلق ، بصعوبة وانحدار شديد ، سفوحاً صلصالية رخوة ويغوص فيها وقد ربطت البركة المائية المتجمدة الطريق ربطاً مستقيماً ومباشراً بمركز المنطقة ، واختصرته بما يقرب من خمسة كيلومترات

في ذلك اليوم رحل كل من فيودور بريديخين ، على سيارة البيكاب ونيورا كوريوشينا ، على شاحنة الزيس (لقد فوض مدير المزرعة التعاونية امر الشاحنة اليها ، هي سائقة الجرار الفضلى التي بقيت من غير جرار) ، رحلا معاً لجلب الدريس ، مستصحبين واياهما عدداً من الصبايا العتالات .تحركت الحافلتان على مهل ، فوق حقل مغطى بالثلج ، في اثر جرارة كانت تدفع امامها صندوقاً من الصلب يجرف الثلج ويفسح الطريق

بلغوا اكداس الدريس الجاف بسلام ، شحنوا وشدوا بالحبال شداً

وثيقاً كميات الدريس المتماسك تماسكاً محكماً والثقيل الى حد ما . ثم قفلوا راجعين بعد أن اطلقوا لمحركي الحافلتين الحرية في ان يهدرا ويقرقعا بقوة واشباع

عند منتصف النهار وصلوا الى البركة المائية المتجمدة . سارت على الجليد اولاً حافلة البيكاب ، وفي اثرها راحت تدب دبيباً شاحنة الزيس ، مؤرجحة حملها الواسع الفضفاض أطلّ بريديخين من كابينة البيكاب ، التفت مبتسماً الى الخلف واومأ برأسه الى نيورا كوريوشينا لا تتهيبي ، يعني هكذا يجب ان تتصرفي .. تمسكي جيداً !

ارتطم رأس بريديخين ، وهو جالس في مكانه ، بسقف الكابينة فطارت قبعته فوق الثلج . كبح فرامل الحافلة ، نزل من الكابينة ، التقط قبعته وعاد ليجلس وراء مقود السيارة . وفي هذه اللحظة دوت فرقعة هائلة رهيبة اخذت تنتشر هائجة وكأنها رجعات اغنية مصحوبة بدوي ضربات موسيقية صخابة وأطلت من جهة اليسار شاحنة الزيس ببوزها الافطس ذي اللون الاخضر ، أطلت وكأنها تسابق البيكاب وبدا فجأة كما لو ان حافلة البيكاب قد مُست من الخلف مسة خفيفة وسحبت الى الاسفل ادرك بريديخين بسرعة خاطفة كل شيء فشغل ناقل الحركة في لمح البصر ، معطياً دفعة قوية كاملة من الوقود ، فزأرت سيارته فجأة زئيراً مدوياً أخرق واندفعت واثبة الى شاطىء البركة المتجمدة

اوقف بريديخين سيارته ، قفز من الكابينة ، ملتفتاً نحو شاحنة الزيس ، إلا انه لم يبصر لها اثراً على بعد حوالي أربعين متراً من الشاطىء ، كان يتراءى داخل ثلمه كبيرة كدس الدريس المشدود شداً

متيناً بالحبال وقد اخذ ينهمر منه الماء على شكل حلقات تدور أبعد فأبعد حول المكان ، وراح الناس يدبون على ايدهم وارجلهم معاً ، متفرقين في اتجاهات مختلفة ... ولم يسمح الدريس الذي كان محملاً هو والخيمة على الجوانب المفتوحة ، لم يسمح للشاحنة بأن تغوص ـ كما يغوص الصخر ـ في الماء الا ان الكدس كان يهبط مع كل ثانية تمر ويغوص تدريجياً في الثلمة الواسعة ، حتى هدأ أخيراً وما عاد يلوح للانظار الا قليلاً ، من خلال المياه التي كادت تغطيه تماماً لقد بلغت الشاحنة بعجلاتها قعر البركة المتجمدة

لم يستغرق الحادث اكثر من دقيقة واحدة ، ولم يتسن لأحد ان يفوه بشيء ما . اندفعت الصبايا مصعوقات مرعوبات نحو بريديخين وكأنهن ينشدن عنده سبباً ما للنجاة مما وقعن فيه . عدا نيورا التي جلست غير بعيدة عن الثلمة وراحت تبكي بكاء مراً شجياً

كانت تنورات البنات اللواتي جلسن في الكابينة مع نيورا مبتلة وسرعان ما تجمدت على أجسادهن ، من اثر الصقيع ، وكأنها قوالب من جليد

ـ كيف نتصرف الان ... مع الدريس ، يا فيد ؟ـ

سألت احداهن بقلق وعيناها مغرورقتان بالدموع

ـ الحافلة أغرقوها ، وانتِ الدريس ، الدريس !..

هيا بسرعة الى القرية ، لا جدوى من الوقوقة والقوقأة هنا ..ـ تصرف بريديخين بقسوة وفظاظة مع الصبايا ، ثم راح يخطو متجهاً نحو نيورا ، شاعراً بذنبه فيما حدث

لم تتمكن نيورا ذات التجربة القليلة في قيادة الحافلات من ان تكبح

الفرامل في اللحظة المناسبة . ولكيلا تصطدم بسيارة بريديخين التي توقفت فجأة فقد أدارت ، بدون لباقة ، مقود الشاحنة ، محاولة اجتياز البيكاب . فكان ان ظهرت الحافلتان متجاورتين ، متراصتين معاً ، فلم يتحمل الجليد مثل هذا الثقل الشديد ... وحصل ما حصل

ـ لماذا أعطوك عينين وفرامل ؟! السيارة ليست جراراً : ما دمت قد جلست خلف المقود فانظري اذن بعينيك كلتيهما ... قلت لك ، لكنك لم تسمعيني تمرني على «عجوزتي» البيكاب اولاً ، ومن ثم خذي الزيس !.. راح بريديخين ، بعد ان قرفص على مقربة من نيورا ، راح يدندن مظهراً تعاطفه معها ، وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة

ـ اتركني وشأني ... أجابته غاضبة مزمجرة وهي تمسح دموعها

ـ طيب المهم هو انك سالمة ، عايشة أما الشاحنة فسوف ننتشلها في الربيع

ـ ماذا ؟! انتفضت نيورا ناطة من مكانها فانسلخت ، بضجة وفرقعة ، تنورتها المتجمدة التي كانت ملتصقة بقطعة من الجليد . ولكن سيغطيها الغرين ويحجبها الطمي قبل ان يدركها الربيع ، وستكون محاطة بالمحار من كل صوب ... هيا بنا الى المدير !.. سنقيم القرية كلها وننهضها ، ولسوف أعجل بالجرار ...

ـ روى ستيپان ڤاسينين ، بعد ان عرّج على ورشه الحدادة ، روى لأوستين وكأنه يحدثه عن داهية دهياء او خطب جسيم خاص به هو بالذات ، حادثة الشاحنة التي ابتلعها اليم المتجمد ولما يمض بعد اكثر من ثلاثة ايام على تقديمها الخدمات للمزرعة التعاونية . فنظر اوستين الى المدير نظرة مشحونة بالشجب والاستنكار والضجر ، وكأنه يقول

له : كيف تجرأتم على ان تفعلوا ذلك؟ القد لزمت الورشة لا ابرحها اسبوعاً بكامله ، صففت ورتبت من جديد جوف الشاحنة كله ، أعدت غسله وطليته بالدهان . ثم نصبت للمركبة جوانب جديدة وثبت لها ابواباً جديدة ايضاً ... كيف فعلتم بها ذلك ؟!

ـ عما قريب سيجلبون لك من الورشة الميكانيكية مرسين من امراس القطر . الحم الى كل منهما عروتين ثم اسرع بنفسك في الذهاب الى البركة لتقديم المساعدة ـ كان ڤاسينين يتكلم بصوت عال مرادفاً كلماته بكثير من الحركات والاشارات الصادرة من يده الوحيدة

حين وصل اوستين الى شاطىء البركة كان العمل هناك يجري على قدم وساق النسوة ، الصبيان والصبايا ، الشيوخ راحوا جميعهم ينتشلون ، بالمجارف والمذاري ، حزم الدريس من الماء ويسحبونها الى شاطىء اليم وكان كل من ڤاسينين ، بريديخين كوستيوشكا المحاسب أغاپوف ذي الساق الوحيدة ، ومعهم بضع نساء ، كانوا جميعاً يهشمون الجليد ، فاتحين من الوهدة منفذاً نحو الشاطىء . وكانوا ينتشلون من الماء فوراً قطع الجليد المنفلقة ويسحبونها ثم يرمونها هنا وهناك على الجوانب وكان يخرج من الماء ومن الناس بخار يتصاعد ، مكوناً أعمدة تتلولب وتتضفر على خلفية السماء ابان الاصيل . كانوا يعملون بهمة ذات جدوى ، بجدية النمل ومواظبته ، بفضول وحب استطلاع يتسمان بالقلق والحرص تجاه انفسهم ، تجاه طاقاتهم البدنية ، تجاه عزائمهم التي لا تكل ولا تمل وتدبيرهم الصعب العسير بما يشبه المستحيل ، في ان ينقذوا الشاحنة الثقيلة وينتشلوها من تحت الجليد

عند الشاطىء ، كان يقف على أهبة الاستعداد كل من الجرارة وحافلة البيكاب واربعة ازواج من الثيران ، في شكل قافلة ممتدة باستقامة واحدة كانت هذه القوى بمجموعها ، وقد ربطت الواحدة منها الى الاخرى بالحبال والقضبان وعرائس المركبات وحلقات التوصيل ....، كانت تنتظر اوآن الانطلاق ، لحظة الصفر لكي تقوم ، متكاتفة متآزرة وفي دفعة واحدة ، بانتشال الشاحنة وجرها الى شاطىء اليم

حينما غدت الثغرة ذات السعة البالغة ثلاثة امتار عرضاً وما يقرب من ثلاثين متراً طولاً مهيأة ومطهرة من الجليد ، أعلن ڤاسينين عن فترة استراحة . فلقد كان من المهم جداً الابداع بالتفكير في كيفية تثبيت حبل القطر وشبكه بالشاحنة تحت الماء احتشد الرجال (وكانوا كلهم من المعوقين الذين سرحوا من الحرب بسبب جراحهم واصاباتهم) احتشدوا مكونين حلقة حول المدير وراحوا ، وهم يدخنون من حين لآخر ، يتبادلون النصح والمشورة

ـ حتى القعر ، ثمة ما يقرب من اربعة امتار لا اكثر

يعني ان طرف الحبل يشد الى العمود و

ـ خبط عشواء ، هيهات ان نتمكن من الأمر بمجرد الحدس والتخمين

ـ فيودور ، هيا اسرع الى الاسطبل حالاً انتقِ من هناك بعض العوارض والاوتاد الخشبية المتينة ، بعض ما هو ملائم وصالح منها اجلب معك اثنتين او ثلاثاً من العُرُش الطويلة الخاصة بمركبات الخيل !.. ـ أصدر ڤاسينين امره الى بريديخين

اقترب اوستين من الحشد ماسحاً بقبعته جبينه الناضح عرقاً ، وقد طرح من يديه الافحال[٢٧] الحديدية جانباً

ـ هاكم انظروا ، حتى أوستين لا يستطيع ان يتنبأ بشيء ، فهو لا يهمهم ولا يمهّمّه .. ولكن لا بأس ، عما قريب سنحاول . ـتكلم ڤاسينين ثم سار مقترباً من الحافة القصوى للثلمة وراح يحدق بنظرات ثاقبة نافذة في المياه المعتمة الغامقة.

تبين ان العمودَ الذي جلبه بريديخين كان اقصر من المراد فوصلوا ، عندئذ ، ما بين عريشتين خشبيتين . وبعد ان ثبتوا المرّس جيداً ، أخذوا يعيثون طويلاً في الماء حتى اصطدموا بالشاحنة . فجرب كل واحد من الرجال حظه بالتناوب . لكن لم يوفق اي منهم في ان يشبك المرس بالحافلة المغرقة

توقف الناس بعد ان احتدموا متقدين هياجاً من فرط ما بذلوا من نشاط وجهد في العمل ، توقفوا وهم لا يدرون ماذا يصنعون بعد هذا وبدأت القشعريرة والبرحاء تنتاب المتون المتصببة عرقاً ، وأخذت جزم اللباد الطويلة المتشربة بالمياه ، وقفافيز الايدي التي غمرها الجليد جميعاً ، اخذت تصّر وتزيّق مثل تنك الصفيح !..

راح القوم وهم ينظرون الى شمس ديسمبر الواهية الواهنة التي طفقت تبتعد حثيثاً وراء الافق القرمزي المشوب بالدخان ، راحوا يتقارعون دونما حقد او سوء ويتلاحون فيما بينهم ، من وقت لآخر ، في ملل واكتئاب ... بسبب البرد القارص القاسي ، وبسبب آخر أهم من

ذلك ، ألا وهو عجزهم الذاتي عن البلوغ بالعمل ، الذي بدأوه بمنتهى الحماس والتكاتف والتواد ، حتى نهايته المبتغاة وشرع بعض الصبيان ، ممن فقدوا الاهتمام والمتعة بالعمل الذي وصل الى طريق مسدودة ونهاية مغلقة ، شرعوا ينصرفون الى بيوتهم وقد تثلجوا بما يكفي ويزيد ...كما أُخذت تقل ايضاً كثافة الحشد المحدق بأنظاره حول الشاطىء ، والمتكون اصلاً من العجائز والشيوخ الذين قدموا ـ كما خيل اليهم ـ لكي يفيدوا بحضورهم القضية المشتركة ، وذلك بالتأثير في الجمهور العامل ورفع معنوياته

كان الماء يتنفس في الثلمة تنفساً خفيفاً ضعيفاً ، نافثاً الابخرة المتجهة نحو الاعلى وكان أسود اللون مضطرباً ، ينعكس عليه بصيص أفولي ذو حمرة غامقة ثقيلة

«خلال نصف ساعة سيخيم الظلام تماماً ، وسوف يكون الوقت عندئذ متأخراً . والى ان يحين الصباح يكون تجمّدُ الجليد قد بلغ اكثر من خمس بوصات» . فكر أوستين ثم تحرك باتجاه المدير

لم ينتبه ڤاسينين المتجهم المرتبك الى الشرح الذي قدمه له اوستين باشارات من اصابعه

ـ انه يشير الى وجوب الغوص وتثبيت الحبل بالشاحذة ـ تحدث الاعرج كوستيوشكا ، لاكزاً ڤاسينين بمرفقه ، بعد ان حزر المراد من اشارات اوستين

ان هذا واضح حتى للغبي المغفل ، غمغم بريديخين . لكن اين نجد مثل هذا الشخص الذي

ـ عموفيديا ، هولها ، فليجرب !... فجأة سبق القول ، بحزم جازم

قاطع ، أحد الصبيان الذين كانوا يحومون على مقربة من الرجال إنه سمين شحيم مثل فيل البحر ، لا يجمد ولا يغرق ولا يبالي بشيء ... ومثل هذا الماء لا يساوي عنده شيئاً

وماذا في ذلك ؟ انه رأي سديد حقاً تلقفها كوستيوشكا ـ إن فيدكا هو أفضلنا جميعاً صحة وعافية

ـ لكن الصحة الجيدة تلزمها صيانة اشد هذا ما كانت تقـولـه جدتي : ردّ بريديخين هازلاً ، ثم اضاف بعد ان شعر بأن القوم ينتظرون منه ما هو اكثر من ذلك ، اضاف قائلاً ايها المدير اوفدني غداً الى المدينة . لي هناك واحد من معارفي المقربين ، انه غوّاص

ـ لم يبق سوى ان تجلب ايضا فصيلـة هندسيـة الى هنا ـ لـوح ڤاسينين باعياء ، مشيراً الى رفضه فكرة بريديخين

ـ قد أغوص في الثغرة الجليدية لكنني سأفعل ذلك عندما اكون قد سئمت العيش وضقت بالحياة ذرعاً ـ أنشأ بريديخين يقهقه بصوت جهير ، غير ان الرجال لم يتقبلوا مزاحه هذا لقـد ضننت علي ، يـا يغوروڤيتش بشاحنة الزيس ، ولهذا فقد عاقبك الله

ـ عاقب الجميع . فالشاحنة هي ملكية عامة ، ملك مزرعتنا التعاونية كلها . واذا كانت عزيزة عليك اكثر من الجميـع فهيا اذن أرنـا مدى اهتمامك بهـا ان المديـر سوف يكـرمك ستجلس انت وراء مقـود الزيس ، وتقود نيورا سيارة البيكاب . راح أغاپوف ذو الساق الوحيدة يهمز واخزاً بريديخين وكأنه يحثه ويشجعه

ما الذي تهدف اليه ، يا ذا الساق الخشبية ؟! تريدني ان أقفز فوراً في الثغرة الجليدية من اجل هذا البريموس الصدىء ، أليس كذلك ؟ـ

بدا ان بريديخين كان يتكلم،أول مرة في حياته ، دون مزاح أو ضحك لعنت مقلتاه الكستنائيتان لمعاناً عدائياً وانتقامياً شريراً ابحث عن الحمقى المغفلين في مكان اخر !.. وعلى العموم ، كفاكم ، ايها الرجال ، تشحذون السنتكم ثرثرة وهذراً لقد آن لكم أن تعودوا الى بيوتكم والصباح رباح

- توارى اوستين خلف كدس الدريس المتجمد الذي التصقت بعضه فوق بعض ، توارى وكأنه يحتاط من لسعات ريح الشمال القارصة البرد . والتقط هناك من فوق الثلج قطعة طويلة من ذلك الحبل الذي كان الدريس مربوطاً به ، قاسها بخطاه ثم بدأ يخلع ملابسه . وقد حثه الصقيع القارص على الاسراع في عمله هذا

خرج الى الرجال بملابسه الداخلية وجواربه الصوفية ، فلاح لهم بجسمه الابيض كما لو انه شبح قد مثل أمامهم فجأة جمد الجميع دهشة وتعاطفاً : فقد كان من غير المألوف ، حدّ الرعب ، ان تشاهد فوق الثلج انساناً خلع ملابسه في مواجهة سيل متحدر لعاصفة ثلجية ثائرة قبيل المساء . حزم اوستين ، أثناء السير ، نفسه بأحد طرفي الحبل ودفع بالطرف الاخر الى فاسينين . خبَّ نحو الثلمة ثم انحدر في الماء ، مستنداً الى حافة من الجليد . حدث كل ذلك في ثوان معدودات . وقف عندها الجميع متسمرين الى اماكنهم ، ولم يتحركوا إلا بعد ان توارى اوستين تحت الماء ، حيث اخذوا يعجون ويضجون وقد سادهم الهرج

- الحبل ، ناوله الحبل بسرعة !.. أطلق فاسينين صيحة قوية وهو يركض نحو ثغرة الجليد

ـ ولكن لا وجود له انظروا ، لقد غرق أوستين ! زأر كوستيوشكا وهو ينظر في الثلمة الجليدية

انحنى الجميع فوق الماء ، مشرئبين بأعناقهم وجعلوا يدققون النظر بضع ثوان بتشبث وعناد في غوره الاردوازي[٢٨] الصامت

لاح اوستين فجأة معوّماً الى اليسار قليلاً ، من الرجال الملتصقين بالثغرة الجليدية ... كان وجهه أحمر كأنه مسموط بالماء الغالي

ـ الحبل !... صرخ ڤاسينين وهو يطبطب ، محتدماً احتداماً جنونياً عنيفاً ، بجزمته اللباد ألتي غطاها الجليد تماماً

مد كل من بريديخين وكوستيوشكا فتلة الحبل الحلزونية التي تحمل عروة صغيرة في نهايتها . فتلقف اوستين هذه الافعى الفولاذية ثم غاب في الماء بعد ان التهم بفمه بعض الهواء . وظل غائباً عن الانظار فترة طويلة نسبياً ، حيث تجاوزت دقيقة من الزمن . ثم ظهر فجأة معوماً فوق سطح الماء وشرع يبتسم ابتسامة مثـيرة للفزع ويـومىء برأســه الى ڤاسينين ايماءة الظفر

ـ شبكت ؟.. حييت من بطل مقدام !... هيا اخرج بسرعة من الماء ! هتف ڤاسينين ، ملوحاً بيده واندفع سريعاً نحو حافة الثلمة

هزّ أوستين رأسه واخرج يده من الماء ، ناشراً اصبعين الى اعلى

ـ يطلب حبلاً ثانياً . وضح كوستيوشكا

ـ واحد يكفي !ـ صرخ بريد يخين

لكن اوستين لوح بحدة ونفاذ صبـر وأقبل يـرفع ، مـرة اخرى ، اصبعين اثنين

---

٢٨ ـ اي الشبيه بلوح الاردواز الصخري او الخشبي

ـ بريد يخين ، المرس ! بسرعة ، ايها المهذار ، يا لسان الابالسة الرجل يخدر برداً اما انت

قذف ڤاسينين الحبل الى كوستيوشكا وتحرك مسرعاً لمساعدة بريديخين

جذبوا المرس نحو الماء حاول بريديخين ان يوصل طرفه الى اوستين ، إلا انه اخفق في مسعاه ، فبعد ان لوح به رماه خطأ في الماء !.. عبرت الحلقة الحديدية محلقة فوق اوستين الذي استطاع ان يلتقط المرس ويتوارى في الماء . لكنه سرعان ما عوّم مفتوح الفم فوق سطح الماء وصرخ عالياً في وجه بريد يخين

ـ بـ ... بليد !... أ أعوج اليد !

ـ ندّت هذه الاصوات عن اوستين كالقشعريرة التي تهزّ الجسد برمته لقد طقّ بها في أسنانه ثم غاص ثانية في اعماق اليم فارتطمت ساقاه بكبوت[29] الشاحنة وراح يبحث ـ فاتحاً عينيه ـ في الاسفل قرب المصابيح الامامية ، عن الناب الاخرى لحبل القطر

ـ أورا !.. عمو أوستين بدأ يتكلم !...

أورا ..ا.!ـ سمع أوستين ، وهو يعوّم فوق سطح الماء ، هتافات الاولاد التي بدت وكأنها قادمة من مكان قصي

لم يكن يسمع الاصوات كما يجب ولا يعيها وعياً جيداً . ما عاد جسمه المخرم بآلاف المسامير الجليدية يستجيب له . وبدا كما لو ان كيانه كله قد تقلص بالغاً حجم قلبه الذي لم يحس به احد سواه ، والذي عاش ، نبض في صدره مضغوطاً بمضاغط الزمهرير القارص ، مقاوماً

---

٢٩ ـ كبوت : غطاء

سكرات الموت باخر ما تبقى فيه من رمق وقوة

انتشلوه من الثغرة الجليدية متجمداً خدراً ، منهوك القوى تماماً طرحوا على كتفيه دراعة[30] وحملوه الى كابينة البيكاب

ـ من ذا يفعل مثل هذا الفعل ؟! ألم تستطيعوا أن تهيئوا معطفاً من الفرو وبعض الفودكا لمثل هذا الظرف ؟! ـ عبر بريديخين عن استيائه وهو يجلس الى جانبه أوستين الذي كان معلقاً بين الحياة والموت

ـ الى امـام !.. ما الـداعي الان الى المهارشـة والتهريـج ؟! هيا عجل ! ـ صرخ فاسينين بالسائق في صوت حادٍ ، ندّ عنه من برد ومن غضب

ـ أورا !.. أوستين يتكلم !.. أورا ...!! ـ كان هتـاف الحشد يتعالى عند شاطىء اليم

---

٣٠ ـ دراعة : قمصلة

- ٢٤ -

في البيت نظفوا جسم اوستين ودلكوه بالثلج والفودكـا . ثم دثروه دافئاً بمعطف من فرو الضأن وارقدوه فوق الموقد الحجري الساخن ترقبوا متوجسـين ، خائفين من أن يكون قد اصيب بالتهاب الرئتين . لكن أوستين لم تندَّ عنه أية سعلة . بيد ان جسمه طفق يتورم مع اقتراب مساء اليوم التالي في الليل التهب حرارة ، تقلب على جنبيـه من اثر الحمى الشديدة ، وقد تورم الى درجة لا تصدق . انتفخت يداه ورجلاه كالمطاط تماماً انتفش وجهه وتضخم تضخماً رهيباً ، بحيث لم يكن يبين فيه مكان العينين سوى ثغرتين ضئيلتين ضيقتين للغاية . وهرعت زوجته فروسيا راكضة الى الموظفة الصحية المسنّة التي سبق أن اخليت الى كليوچوفكا من مكان ما قرب مدينة بريانسك . ألقت هذه على اوستين نظرة لم تحاول بعدها حتى ان تفتح حقيبتها الجلدية البالية التي كانت تنطوي على بعض العقاقير والادوات الطبية

- الكليتان ، - فاهت بصوت خافت وهي تجس نبض اوستين وتغرز أصابعها في ساقيه المتورمتين . وظـل جسمه الشبيـه بعجينة رخـوة محتفظاً بالبعجات التي احدثتها فيه أصابع المرضة إياها

- اسمعوا ، - تكلمت ، ثم سكتت قليلاً

ثم اضافت وهي تغادر الغرفة انه في وضع عسير جداً ، غير انني لا

استطيع أن اساعد في شيء

ـ ولكن ، الا يستحسن ان ننقله الى مركز المنطقة ؟ـ سأل ، ملتمساً ، كوزما دانيلوفيتش

ـ كلا ان الامل الان منوط كله بالجسم ، بقوة المناعة الجسدية يقدر على التحمل ، يعنى انه سيعيش ، لا يقدر ، يعني انهما الكليتان !ـ أفصحت الموظفة الصحية هامسة فتحت حقيبتها الطبية ، عثرت فيها على زجاجة صغيرة وضعتها في راحة الشيخ المتهيأة المفتوحة : والان هاكم هذه القطرات ... ثلاث مرات في اليوم . قللوا له من الشرب ، ولا تعطوه اي شيء مالح

كانت حال اوستين تسير من سيء الى أسوأ ، ساعة بعد اخرى . كان يتلظى حرارة . وقد تكررت باطراد حالات الغيبوبة والغشيان عنده ، كان يئن ويهذي كثيراً . وفي لحظات الفرج والسكينة كنت تراه يصبر ويواسي بلطف ـ وكأنه مذنب ـ أهله وذويه الذين جلسوا بجنبه عاجزين لا حول لهم ، وقد اغرورقت عيونهم بالدموع

ـ لم تستطع ان تحترس أصابتك الصحوة ، ها !ـ أخذ كوزما دانيلوفيتش ينوح عاذلاً ، بعد أن بقي وحده مع اوستين .ـ في الحقيقة ، لست خالياً ، انا الاخر ، من ذنب هنا بطبيعة الحال ... لكن يخيل الي انني كنت أتوخى الرشد والصواب : كان من الأفضل أن تلزم الصمت الى ان يحين موعد اجتماع اللجنة الطبية . أظنه بعد شهر او شهرين أهو زمن طويل يا ترى ؟.. ألم يكن الامر كذلك ؟.. وهكذا كان بامكانك ان تخبر الاطباء عندئذ بكل شيء . والى ان تجتمع اللجنة الطبية كان القانون نفسه الى جانبك ايضاً ، فلديك شهادة طبية باصابتك وعوقك

في حـين انك آذيت نفسـك ، عاقبتهـا واقتصصت منها سلفـاً ، قبل الاوان ... لم يلقوا عليك القبض ، الا انك بمثابة لص ، أليس كذلك ؟

ـ القانون في داخل ذاتي ، يا ابتاه ، إنه يـ ... ينطلق مني .. تـ تجاوزت ضـ ... ضميري فكان ان تـ ... تجاوزت القانون ايضاً

ـ أجل ، قد تكون مصيباً ، يا بني ، ولكن ما الفائدة الان ؟...

ـ كل شيء على ما يرام ، يا أبيء ـ جهد اوستين ان يتصنع ابتسامة. ـ الشاحنة قـ ... قد انتشلناها ... وانا الان مـ ... مستعد لما أشاء ان اغني ، وان اقاتل ايضاً

ـ اي نعم . وهل تعرف حقاً لاي شيء تصلح انت الان ؟ .. واطبق كوزما د انيلوقيتش رموشه الندية

ـ عندي ، يا أبي ، المهم هو ... أن الحق بالناس ، أنضم الى ركبهم ، اجل . ربما كان في مقدور بعضهم ان يصبر على مثل هذه الحياة ، ان يجدها ملائمة له أما انا فحتى لو ذ ... ذبحوني ان الخنوص المسروق يظل ابداً يقبع ، ينخر مولولاً في الاذان نعم ، انك تستطيع ان تكتم شيئاً ما عـ ... عن العالم ولكن عـ .. عن ذاتك كيف ؟!... انه لأمر مرهق لا يطاق ، كالاشغال الشاقة تماماً ، أن تهلك نفسك بنفسك

آه ، ما أشد الحـر !... ولكن ، كـ ...كفّ عن البكاء ، يـا أبتي أنا بخير ، وحتى لو مـ ... متّ فلا بأس ... سوى ان رأسي بـ ...بدأ يـ يتصدع ، تعال ... ربما ... فات الاوان ، لن تستطيع شيئاً ... النار في كل مكان . اعطني ماء !.. اخمدها ، يا أبي . هناك ، أراهم ، يحملون ها هي ذي ... مذكرة الاستدعـاء فلقد كتبت اليكم ، ايهـا الرفيق الـرائد ، التمست انـا سالم معـاف ، ايها الـرفيق رئيس اللجنة

العسكرية هاهم ، الاوغاد ... من جهة اليسار ، انظر ، انهم يطوقوننا من اليسار .. ميرغاليف ! جهاز التسديد اثنا عشر ، بخارقة الدروع النار ! بسرعة ... الماء ... النار

استمر اوستين غارقاً اكثر فاكثر في هذيانه ... كان يهمس همساً مشتتاً بكلام متقطع غير مترابط ، يسب ويندد من وقت لآخر ، بل وينشج احياناً ثم هدأ فجأة هدوءاً مخيفاً . فانحنى كوزما دانيلوفيتش على وجهه المنتفخ الرخو الشاحب شحوب الموتى والخالي من أيتما قطرة دم ، محاولاً ان يلتقط انفاس ولده الخافتة الساكنة

ـ ماذا ؟! ألقت فروسيا على الغرفة نظرة استفهام مشحونة بالفزع

تحرك كوزما دانيلوفيتش بضع خطوات عن سرير ولده ثم تكلم بصوت خافت وهو ينظر الى وجه كنته المضطرب المرعوب

ـ انه يتلظى كالموقد حرارة ، لكن ليس ثمة من عرق . يالها من كارثة الحمى كلها في داخل جسمه انها تشتد دونما شفقة اذا بقيت هكذا فيمكن ان تخنقه

فرجت فروسيا ما بين شفتيها الرقيقتين الضامرتين ، اللتين تقلصتا واجماً مفجعاً ارادت ان تقول لحميها شيئاً ما ، الا انها لم تستطع سوى ان ترسل انيناً ثقيلاً مؤلماً ... ثم تسمرت في قنوط كليل ، محملقة في اوستين بعينين شاردتين غائبتين

لقد تغيرت فروسيا تماماً خلال هذه الايام الاربعة من مرض زوجها تقدمت بها السن وبدت كما لو انها اصيبت بالصمم ، كانت تجيب من يناديها ببطء شديد ، متوجسة ، خائفة اية تغييرات منتظرة ، مقبلة في الحياة . كانت هذه التغييرات على درجة من الشدة المفجعة المصعقة

بحيث انها ثبطت عزيمتها بالمرة،ايأستها كل اليأس وكبست انفاسها فبدموع الفرح اندفعت نحو زوجها وهي تسمع صوته من جديد ... بيد انها سرعان ما اضطرت ، بعد مضي يوم واحد فقط ، الى ان تمسح دموع الحزن والاسى . بدا وكأن اوستين لم يبدأ النطق الا لكي يسكت في الحال ، الا لكي يتوارى الى الابد عن الانظار . لم ينطق لكنه كان صحيحاً معافى . وحين نطق اذا به وجهاً لوجه امام الموت !

ارجوك، سـ ...سامحيني ، يا فروسيا اجثو على ركبتي امامك وامام الناس ... حافظي على الاطفال !... كان اوستين يهمس لزوجته في لحظات وعي الذاكرة . وكانت فروسيا تندفع نحوه ، تحتضن براحتيها وجهه المنتفخ الساخن ، وكأنها تحاول ان تحتفظ ، في آن معاً ، بهذا الوعي الذي انبعث فيه للحظةٍ ، وبالصوت الحبيب الموشوش في أذنيها

- ٢٥ -

أخذت عجائز القرية يخففن الوطء ، يحترسن بعض الاحتراس في حركاتهن وخطواتهن عند منزل آل ديدوشيف ، بل ويتوقفن وكـأنهن يتشممن ويستطلعن شيئاً ما وأحس كوزما دانيلوفيتش في هذا كله أمارة سوء ، فألاً منذراً بالشؤم

- إيه ، ما بالكن تحوّمْنَ حول الدار وتدوّرن برؤوسكن كالغربان ؟! ما الذي شمته أنوفكن ، ايتها العقائق الهرمـة ؟ طاح بهن صراخـاً وقد استبد به الغضب واخذ منه الكدر والضجر على الرغم من انه ادرك خطأه وفظاظته تجاه النسوة العجائز ، وأقر بالعجز وبالقضاء المحتوم أمام المصيبة التي اقتحمت الدار لا مفر منه ولا مرّد له

- ما كان ينبغي لك ان تلجأ الى الصراخ ، يا دانيليتش انما جئنـا بدافع العطف والحنان

- سيئة هي حال ابنك أوستين ... حتى الموظفة الصحية ، أتسمعني ، رفضت أن ... هيه ، ولكن ماذا بيدنا الآن ؟ كل امرىء وما كتب الله له ... ولا مفر من الموت

- لاتخشَ الموت ، ايها الانسان ، بل الذنوب والاثام هي التي يجب ان تخشاها . وانه لامر مفزع ان يرحل المرء حاملاً معه آثامه !... وما دام اوستين حياً

- أجل ، ما دام حياً فـلا تتـأخـر، يـا دانيليتش ، في طلب الجـدة

أوفسيانيخا وعلى الرغم من انها ليست قسا لكنها تستطيع ان تقوم بالقاء موعظة الغفران ... ولربما يريد اوستين ان يقول كلماته الاخيرة ان يعترف قبل مغادرته الحياة الدنيا الموت وعد وفرض من اللـه والاعتراف حق وفرض منه ايضاً وليس عبثاً أن قد أعاد الله اليـه النطق والسمع ثانية

وسرعان ما ظهرت الجدة أوفسيانيخا التي لاحت وهي تعود أوستين بكسائها القاتم وشالها الاسود المكون من قطعة نسيج مثلثة الشكـل تتـدلى فوق جبينهـا الاصفر ، لاحت أشبـه ما تكـون بعقعقة هـرمة عجفاء فنظر اليها كل من كوزما دانيلوفيتش وفروسيا بفزع ونفور ، إلا انهما لم يفردا لها مكاناً خاصاً في الدار ، بل قاداها بصمت الى الغرفة مباشرة وتركاها على انفراد مع أوستين

بعد قليل ظهر كل من ڤاسينين والحداد پانكرات كانا يعلمان ان اوستين متوعك الصحة ، لكنهما لم يكونا يدركان انه على مثل هذه الحال من السؤ والاذى دخلا الغرفة وكأنهما لم يصدقـا حديث فـروسيا الدامع الباكي ، فتوقفـا مصطدمـين بتمتمات أوفسيـانيخا المخيفـة وغمغماتها المشؤومة

-كل ما يصنعه بنا هو جزاء لما اقترفناه نحن من آثام ايها الموت مبهـج حكمك لـلانسان الفقـير اليك والضعيف الـرازح تحت اعباء طاقاته

- هـو نفسه اصـدر على نفسـه حكماً ليس أخف وطـأة من قضـاء الرب !...تكلم كوزما دانيلوفيتش ، الذي دخل الغرفة مع الرجلـين ، تكلم ناشجاً من خلال انفه الاحمر ، وكأنه يتدارك مصوباً بوجل كلام أوفسيانيخا

تبادل ڤاسينين وپانكرات النظرات فيما بينهما كما لو كان كل منهما

يطلب المشورة من لدن صاحبه

ـ أوستين !.. صاح ڤاسينين فجاة ، منادياً بصوت عال ثم خطا نحو السرير . هل تسمعني ؟

كان رد أوستين قد تمثل في أنفاس ساخنة متكررة ، ليس إلا.وقد تشنج قليلاً وجهه المتورم الثقيل فبدا وكأنه يحمل ابتسامة

ـ هذا جيد اذن . ما دمت تتنفس يعني انك على قيد الحياة تكلم ڤاسينين محبذاً مستحسناً ... دفع ، مزاحماً بكتفه اوفسيانيخا واحتل المكان الرئيسي قرب السرير . لقد عجلت ، ايتها الجدة ، في تدبير أمر تشييعه المبكر جداً الى العالم الاخر انتظري قليلاً !

ـ مثل هذا الامر حصل ايضاً لزوجتي دوسيا في ايام شبابها،تحدث پانكرات وهو يجس لامساً رجلي اوستين.ـ في اليوم الثالث لما بعد وضعها مولودها الاول ، ذهبت تغسل البياضات في النهر ومن شدة الحر استحمت هي نفسها ايضاً ، فتورم جسمها ولزمت الفراش فاقدة الوعي كأنها قرمة شجرة ... فاعتقدت ان قد حلت نهاية يڤدوكيا ، لأنها آلت الى حال من السوء بحيث لم يبق عندئذ بين الحياة والموت حتى قدر مسافة لاجتياز برغوثة . وبينما الامر كذلك إذ أدركني شيخ وقور ولقنني ما يجب صنعه . فهل تعلمون كيف تمكنت من انقاذ حياة يڤدوكيا ؟...

قطع پانكرات حديثه ، نادى فروسيا وسألها الا ترينني حمامكم !

بعد مضي بضع دقائق عاد پانكرات قائلاً

الحمام على ما يرام ، الحطب جاهز .هل تسمح لي يا دانيليتش بأن أجرب علاجي الطبي ؟

ـ جرب ، وهل بقي امامنا خيار لنقرر ما الأحسن وما الاردأ ؟ ها هن العجائز يقرأن على أوستين قداس الموتى . يموت ابني فتحل ، أنا الاخر ، نهايتي أيضاً

طرح پانكرات معطف فروالضأن عن كاهله وباشر في اللحظه ذاتها عمله . حمل ، بمساعدة فروسيا ، الى الحمام حطباً وماء ، اوقد النار في الوجاق بقيت الشعلة تئز تحت المراجل دونما انقطاع نحو ساعتين دراكاً . وبين الفينة والفينة كانت حصبات الفحم تفرقع مستوعبة ومدخرة الجمر الجاف . وكان پانكرات يخرج بين وقت واخر من الحمام الى صحن الدار لكي يتجنب التسمم بغاز الفحم ، يخرج وقد تصبب وجهه عرقاً ودمعت عيناه من اثر الدخان ، فيكسر الحطب ويعد المقشّات

ـ ما كان يجب ان تقف حيث تيار الهواء ، يا سيميونيتش أخشى ان تصاب بالبرد ـ أبدت فروسيا قلقها على العجوز پانكرات

ـ كل شيء جاهز ، فلننقل اوستين الى هنا ، امر پانكرات . من المرجح ان سنتمكن ثلاثتنا معاً من حمله

دثروا أوستين بملحفة دافئة ، جاءوا به الى المنزع التابع للحمام شلحوا عنه ملابسه ووضعوه بعد جهد جهيد ، فوق منصة البخار الخشبية في حجرة الحمام الشديدة الحرارة

انه لبخار ما بعده من بخار ، تتصدع منه العيون !ـ نكص كوزما دانيلوفيتش متراجعاً الى غرفة المنزع

ـ هذه بخُيرة ، اما البخار فسوف يأتي فيما بعد

تكلم پانكرات ثم اخذ يخلع قميصه وسرواله

اشاحت فروسيا بوجهها وغادرت الحمام

ـ ما اشد الحر هنا !... كأنك في تنور من صفيح !٠

اخشى ان يختنق هناك ! جعل كوزما دانيلوفيتش يقلق على ولده

لاح له پانكرات الاعجف النحيف ، ذو الجسد الضامر ، والمحدودب الظهر من اثر الشيخوخة ، لاح له واهناً ضئيلاً وهشاً ضعيفاً للقيام بمثل ذلك العمل الشاق المرهق الذي كان ينتظره في حجرة الحمام البالغة الحرارة ، في الوطيس الذي ينفث أبخرة نارية ملتهبة تلفح لفحاً

لبس پانكرات قبعته وقفاريه ، تناول احدى المقشات ، خطا الى داخل حجرة الحمام وأوصد من خلفه الباب . وسمع كوزما دانيلوفيتش كيف زاد پانكرات كمية البخار ، راشاً الماء على الحصبات المتوهجات . ومن ثم اخذت تبلغ السمع ضربات سريعة متواترة ترسلها المقشة ، مصحوبة بتأوهات وأنات وآهات وآخات كأنما هناك معركة قد نشبت وراء الباب الموصود . وبعد مضي ما يقرب من خمس دقائق خرج پانكرات الى المنزع ، غسل رأسه غسلاً خفيفاً بالماء البارد في البرميل وهوى على المصطبة

ها ؟! سأل كوزما دانيلوفيتش بتوتر وجهد بعد ان تنفس العجوز پانكرات الصعداء ، بالعاً ريقه قليلاً

باعد پانكرات بصمت وذهول ما بين يديه . تناول مقشة جديدة وانصرف الى غرفة الاستحمام . كان اوستين ممدداً بلا حراك . وقد ظهر انه لا البخار الساخن الجاف ولا ضربات المقشة اللافحة القاسية اثرت فيه او جعلته يشعر بشيء . كان جسده اصم ساكناً تجاه جميع مساعي پانكرات وجهوده المضنية

في صباح اليوم التالي اوقد پانكرات الحمام من جديد . حملوا اوستين ملفوفاً بالملحفة الى غرفة الاستحمام ثانية ، وكان مجرداً من ملابسه في هذه المرة ايضاً . وجعل پانكرات ينزل ، دونما رأفة بنفسه

الواهنة الواهية ولا بقلبه الهرم المقوض الملغوم بالعديد من الاسقام والعلل ، ينزل على جسد اوستين سيلاً من ضربات المقشة المعمولة من اعواد شجرة البتولا ، ينعم جلده بضراوة وقسوة ، ويدعك بيديه ، يدلك ، يمسد ، يضغط بشدة اعضاء جسمه كلها ... لقد استوثق من انه اذا بقي جسد اوستين محافظاً على مثل هذه الحمرة والحرارة فمن المستحيل ان تخرج منه الحياة ، ان يفتر ، ان يموت . واستمر يعمل يسعى جاهداً بقوة اعصاب تفوق الحد وبطاقة ذاتية قليلة ، حتى كاد يختنق من شدة الحرارة الجهنمية وضيق النفس

بعد عملية التبخير الاولى بدا جسم اوستين المتورم ، المنتفخ كالمطاط ، بدا وكأنه قد ثقب في كل جزء من اجزائه و في كل مكان منه بآلاف الابر ، وقد تبجس منه العرق . أخذ اوستين يئن ويرسل صيحات خافتة ، وبعد التبخيرة الثانية فتح عينيه

ها ، كيف الحال ، يا اخي ؟ نظر پانكرات ، مبتهجاً مسروراً ، في وجه صاحبه

الجو حار .. لكن جسمي لا يحس الا قليلاً . كما لو كنت تـ ... تجلد خشبة ! زفر أوستين.

ـ التسخين جيد جداً . حتى اسناني اخذت تؤلمني من شدة الحمي ، ليس ثمة ما تتنفسه هنا انظر كيف صار جسمك ينضح عرقاً ، انه لبشير خير يا اوستين اما الان فاسمح لي بان اديرك على ظهرك . اجل هكذا ، هكذا

تحركت سريعاً - بفعل ضربات المقشة موجات شديدة مرصوصة من الرمضاء . جعل كل من پانكرات وارستين يلتهم بفمه ، متشيطاً

ملسوعاً ، كميات من الهواء الحامي ، نشجا معاً ، تأوها ، أنّا ، زحرا ... وكأنهما يتعاركان ، فيما بينهما ، عراكاً لا هوادة فيه ولا رحمة

ـ يقشعر بدني ... وخزات خـ ... خفيفة اشبه ما تكون بدغدغات ، احس بها تسري في ظهري ... ـ اخذ اوستين يغمغم

ـ هكذا بالضبط !.. هو ذا المطلوب تماماً !. انه الاحساس غدا يعود اليك !ـ طفق پانكرات يرسل صيحات المسرة والبهجة

في اليوم الثالث اوقد الحمام مرة اخرى وبخر اوستين ثلاثاً ، مستهلكاً البقية الباقية من قواه . وهنا حدث امر مدهش عجيب : تغشّى جسم اوستين كله بطفح كثيف ضارب الى الحمرة ، كأنما الصقت عليه بذور الحنطة الناعمة التي تحضر منها العصيدة

وهذا هو المطلوب ، ـ راح پانكرات يردد مكرراً ـ باطمئنان واعياء ـ كلماته وكأنه يلخص مجمل عمله الايقاعي المهم الذي اجراه في حجرة الاستحمام .ـ انك ستنتعش بلا ريب . ها هي ذي الاورام قد هبطت الى النصف سوف تشفى ـ..

بعد التبخيرة الثالثة خرج اوستين من حجرة الحمام ماشياً على قدميه . لكن پانكرات رقد ولم يقم من رقدته الى الابد

واعتقد الناس ان الاسقام والعلل التي ما فتئت تلح منذ زمن طويل على الرجل العجوز هي التي قهرته واستلت منه الحياة في نهاية المطاف اللهم الا اوستين الذي كان هو وحده يعرف السبب الحقيقي الذي عجل ـ، بهذا الشكل المباغت ، في اختصار اجل پانكرات الذي رحل تاركاً اوستين هكذا حتى النهاية دون ان يصمم او يجرؤ على ان يسر

اليه بمكنون روحه المعذبة . وها أن الـوفت قد امسى الان متـأخراً للغاية

-٢٦-

عاد اوستين الى الورشة بعد مضي ما يقرب من ثلاثة اسابيع على الحادث الذي وقع فوق جليد البركة المائية. تناول المطرقة بيدين واهيتين متغيرتين كل التغير ومغسولتين الى درجة من البياض لا تقبل التصديق تناول المطرقة ووقف طويلاً كالعمود امام السندان، متذكراً ... كان متفجعاً تفجعاً عميقاً مشبعاً بالندم والتأنيب الذاتي على صديقه الحداد العجوز الطيب الذي بدا له وكأنْ قد دفعه هو، بيديه، الى القبر دفعاً

واغتم ايضاً كوزماد انيلوفيتش، صار ينظر الى ابنه كمن اقترف ذنباً متجنباً الحديث معه لكنه حين رأى أوستين متأهباً - بعد ان استرد صحته - للذهاب الى الورشة اشار عليه بوجل قائلاً

حبذا لو انتظرت قليلاً لكي تستجمع قواك ان الريح زعزع اخشى ان تصيبك بأذى. يجب ان تكون الآن متأنياً جداً وهادئاً حذراً في حياتك العملية، لا تجهد نفسك كثيراً في العمل عوضاً عن ثلاثة اشخاص في آن واحد! فأنت مازلت واهناً عليلاً، يا بني، على الرغم من انك قد تباهيت ونطقت امام الناس ... ثم انه ما كان حتى في طاقة الشيطان نفسه ان يمتنع عن البكاء والصراخ وهو يغوص في مثل هذه الثلمة الجليدية القاسية

-وما شأن الثغرة الجليدية هنا؟ انني قبل هذا ... أجل، في زمن سابق

كـ ... كتبت الى مـركز المنطقـة عن نفسي . وكـ .. كفاك شفقـة عـليَّ ، ياابي ... لقد اشفقت حتى الشبع !ـ تكلم اوستين وقد ظهرت في صوته صرامة متنامية ، وانكشفت على وجهه الشاحب المكفهر ، فجأة ، مقلتان تلتهبان ـ بشدة ـ شرراً أزرق وكأنهما تغليان من الداخل غيظاً

ـ كيف ؟ وما الذي كتبته ؟ـ سأل كوزما دانيلوفيتش بلهجة لينة وهو يغض الطرف عن وجه ابنه

خطا اوستين نحو الزاويـة ، حيث اكورديـونه المعلق فـوق المنصة الخشبية ، استل من تحت سيره الجلدي قصاصات من ورق اصفر اللون دسها في كف والده

ـ انظر(...هي ذي الوريقات التي بقيت .، انهامـ...مسودة الرسالة التي ارسلتها

ـ وضع كوزما دانيلوفيتش نظاراته على أنفه ، قلّب قصاصات الورق التي اخذت تحدث في يديه خشخشة وحفيفاً ... ثم اكب على قراءة تلك الوريقة التي كانت تحمل لطخات وتصحيحات أقل من سواهـا أنشأ يقرأ ، حانياً ظهره اكثر فاكثر وقد زاد وجهه امتقاعاً وشحوباً ...ثم تهاوى على الكرسي وهو ينظر بإرتباك وذهول الى ولده

ـ أنا ... الى الورشة ...ـ قال اوستين ذلك وجعل يخطو في لهفة وجزع نحو عتبة الدار

عندما صفقت الباب شعر كوزما دانيلوفيتش بدوار خفيف في رأسه وبضربات قلبه المدوية داخل صدره الواهي استند بيـده على حـافة الكرسي ثم مدّ يده ثانية ـ على الرغم من ارادته ـ نحو الورقة واخذ يقرأ بترو وتفكير ، متفحصاً ، متأملاً في تؤدة ، أسطر الرسالة القصيره التي بدت

مرهفة مسنونة ومستقيمة واضحة مِثْل سكاكين الآلة الحاصدة
« الرفيق رئيس لجنة المنطقة العسكرية

أنا ، ديدوشيف أوستين كوزميتش ، آمر مدفع في اللواء الثالث لمدفعية الميدان المضادة للدبابات ، اصبت اثناء المعركة التي دارت في ١٠ تموز عام ١٩٤٢ ، على مقربة من قرية أولخوفاتكا الواقعة في ضواحي مدينة كورسك ، اصبت بجرح في رأسي وكدمت بوثاءة قوية سببت لي صمماً وبكماً تامين . عولجت في المستشفيات العسكرية ، لكن بلا جدوى . منذ وقت غير بعيد ، زالت عني الوثاءة تلقائياً أنا الان سالم معافى واستطيع ان أعود ثانية الى خطوط الجبهة . وهذا هو الامر الذي وددت ان اطلعكم عليه . ان موعد حضوري للمثول امام اللجنة الطبية هو في شهر شباط غير ان هذه المسألة لم تعد لها ، في نظري ، أية أهمية . أرجو مساعدتكم في ترحيلي الى المواقع الامامية

من فوق المنامة الخشبية ، هبط الصغير ڤاسيليك ، عاري القدمين ، في قميص قصير بلا سروال . كان مقرور الجسم ، حدّ القشعريرة ، من البرد الصباحي الشديد ، في الدار التي لم تكن مدفأة حتى ذلك حين استخفى ، صامتاً وبحركة سريعة ، بين ركبتي جده . تلقف كوزما دانيلوڤيتش حفيده الناعس ثم أخذ ، وهو ينزع نظاراته ، يملّس بحنان وشرود ناصيته المشعثة الشقراء ، مطمئناً بدفء القرابة والنسب ، بالدفء الناعم الحنون ، هذا المخلوق الادمي الحبيب القريب ، الصغير ...

ـ لابأس ، ياڤاسيليك ... مادام الامر كذلك فليكن اذن ! ... ان الولد قد اختار بارادته وتصرف طبقاً لمشيئته ... ومع ان ذلك يعزّ على الوالد ويحزّ في

نفسه ، لكننا لو تأملنا في الامر لوجدنا ان هذا الذي فيه هو مني أيضاً يعني ان آلنا ، آل ديدوشيف ، بوجه عام ، قد تغلبوا على كل شيء ، تجاوزوا في عنادهم جميع ذوي العناد ، بلغوا الغاية والمراد ، أليس كذلك ؟!

في اعتزاز مشوب بالمرارة ، راح كوزما دانيلوفيتش يفكر بصوت مسموع ثم أخذ ، وهو يضم بقوة حفيده الصغير الى صدره الحنون ، أخذ يجفف بقبضته المرتعشة عينيه المغرورقتين بالدموع التي حجبت عنهما الرؤية

عن المترجم / حسن نجم البياتي

★ولد في محافظة ديالى سنة ١٩٣٠ ونشأ في بغداد
★دخل المدرسة الابتدائية عام ١٩٤١ وانهى الاعدادية عام ١٩٥١
★ليسانس شرف في الاداب من كلية التربية / بغداد ١٩٥٥
★دكتوراه فلسفة في اللغة والادب / جامعة موسكو ١٩٦٥

الوظائف التي شغلها منذ عام ١٩٥٥

١ ـ مدرس على الملاك الثانوي ـ ١٩٥٥ ـ نهاية ١٩٥٩
٢ ـ محاضر ثم مدرس في كلية اللغات الشرقية بجامعة موسكو ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ـ
٣ ـ مدرس فأستاذ مساعد في كلية الاداب بجامعة البصرة ١٩٦٦ ـ ١٩٨١

ابرز اثاره المنشورة باللغتين العربية والروسية

١ ـ من شفاه الحياة ـ مجموعة شعرية ـ بغداد ١٩٥٦
٢ ـ جنود الاحتلال ـ مجموعة شعرية ـ بغداد ١٩٥٩
٣ ـ الشعر العراقي الحديث في معركة النضال ضد الحكم الملكي (باللغة

الروسية) ـ موسكو ١٩٦٥

٤ ـ الطابع المعادي للاستعمار في الشعر العراقي الحديث (باللغة الروسية) ـ موسكو ١٩٦٥

٥ ـ انتكاسة الشعر العراقي في حروب البلقان ـ البصرة ١٩٦٨

٦ ـ مواقف مناوئة للحرب في الشعر الجاهلي ـ البصرة ١٩٦٩

٧ ـ مع قصيدة بصرية ـ دراسة وتحقيق ـ البصرة ١٩٧٧ و ١٩٨٠ ـ

٨ ـ قصة مجهولة من التراث الشعبي العربي في القرون الوسطى ـ ترجمة عن الروسية مع التعليق ـ البصرة ١٩٧٩

٩ ـ أولئك الذين تحت ـ رواية مترجمة عن اللغة الروسية ـ بغداد / دار الشؤون الثقافية ١٩٨٦

١٠ ـ الأدب الفلبيني ـ كتاب مترجم عن اللغة الروسية ـ كتاب «الثقافة الاجنبية» ـ بغداد ١٩٨٧

١١ ـ الأدب الآسامي / الهندي ـ كتاب مترجم عن اللغة الروسية ـ كتاب « الثقافة الاجنبية» ـ بغداد ١٩٨٨

١٢ ـ عشرات القصائد الشعرية الموضوعة والمترجمة عن اللغتين الانكليزية والروسية ، المنشورة في العديد من الصحف والدوريات العراقية والعربية منذ الخمسينيات وحتى الوقت الحاضر .

١٣ ـ جملة من البحوث والدراسات والقصص والمسرحيات المترجمة عن اللغة الروسية ، نشرت في العديد من المجلات العراقية

١٤ ـ نشرت بعض اثاره الشعرية مترجمة الى اللغات : الروسية ، الأوكراينية ، الچيكية ، الصينية ، الكردية ، العبرية وغيرها

دار المأمون للترجمة والنشر

تأسست في منتصف عام ١٩٨٠ لتتولى مسؤولية الترجمة ونشر المطبوعات الدورية الناطقة باللغات الاجنبية والمطبوعات المترجمة من والى اللغة العربية وبما يؤمن الاسهام الفعال في عملية التواصل والتفاعل الحضاريين بين العراق والعالم

تصدر دار المامون الصحف التالية -

١ - جريدة بغداد اوبزرفر - يومية سياسية ناطقة باللغة الانكليزية
٢ - مجلة بغداد - شهرية سياسية عامة ناطقة باللغة الفرنسية
٣ - مجلة كلكامش - مجلة الثقافة العراقية الحديثة - فصلية ثقافية ناطقة باللغة الانكليزية

وتترجم الدار كتبا من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية واخرى من اللغات العربية الى اللغت الاجنبية وتصدرها

كما تقدم خدمات الترجمة الفورية والتحريرية للمؤتمرات والندوات الدولية داخل العراق وخارجه